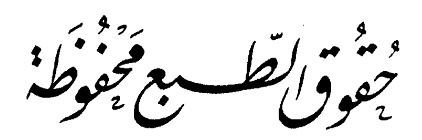


تأليف

أبي محمد صلاح بن عبد الموجود

دار ابن رجب



الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع : ٨٩٩٧ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى : I.S.B.N : 977- 390 - 004 – 5

دار ابن رجب طبع . نشر . توزيع

فارسكور : تليفاكس ٠٠٢٠٥٧٤٤١٥٥٠ جوال : ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢

المنصورة : شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : ٠٠٢٠٥٠٢٣١٢٠٦٨

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحَمْدَ لله ؛ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِه اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ - وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ - وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء : ١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾

[الأحزاب : ٧٠ - ٧١]

أَمَّا بَعْدُ :

فَإِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ الله ، وَخيرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَة .

و بَعْدُ :

فهذه الرسالة قد حوت أُصُولَ المُكَدِّرات التي تعكر صفو القلب وضوءه ، وتسلبه نوره الذي يهتدي به في سيره ؛ إذ قد يكون بعضها مباحا ، ولكن قد يكون الإفراط في المباح سبباً في تَكَدُّرِ القَلْبِ ، وتَعَطُّله عن سيره إلى الله ﷻ ، وهذه الرسالة جعلتها حمايةً وحراسةً للقلب ، ذكرت فيها المكدرات

التي تعكر صفوه ، وتشتت شمله ، وتشغله عما خلق له ، ألا وهي « **العبادة** » جمعتُ فيها الآيات والأحاديث التي تتعلق بالموضوع ، كما زينتها بقطوف من أقوال الصحابة والتابعين ، وبعض مسالك الجيل الأول مع القلب وعلله ودوائه ؛ إذ القلب هو موضع الإيمان ، ومحرك الجوارح ، فإذا تكَدَّر على العبد قلبه اختلت الجوارح ، وانشغلت بغير ما خلقت له ؛ وهذا الباب لا يتكلم فيه إلا أصحاب القلوب النيرة السليمة ، ويعلم ربي أني لمن أشد الناس تفريطا وتقصيرا ، ولا أقول ذلك دفعا لشبهة الرياء وغيره ، ولكنها الحقيقة ، ولكني لما رأيت الكلام قل في هذا الباب ، جعلت هذه الرسالة تذكرة لي ولإخواني وقد أسميتها « **مُكَدِّرَات القُلُوب** » أسأل الله أن ينفعني بها وإخواني وكل من قرأها ونشرها ، اللهم آمين .

كتبها

صلاح الدين علي عبد الموجود

الحمد لله الذي أعان بفضله الأقدام السالكة، وأنقذ برحمته النفوس الهالكة ، ويسّر من شاء لليسرى فرغب في الآخرة ، قرّب إليه وأدنى القلوب الواجفة ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

أما بعد :

فإن الله سبحانه لم يخلق خلقه سدى هملا ، بل جعلهم مورداً للتكليف ، ومحلا للأمر والنهي ، وألزمهم فهم ما أرشدهم إليه مُجْملا ومُفَصَّلا، وقسمهم إلى شقي وسعيد ؛ وجعل لكل واحد من الفريقين مترلا ، وأعطاهم موادَّ العلم والعمل ، من القلب والسمع والبصر والجوارح ، نعمة منه وفضلا ، فمن استعمل ذلك في طاعته ، وسلك به طريق معرفته على ما أرشد إليه ، و لم يبغ عنه عدولا فقد قام بشكر ما أوتيه من ذلك ، وسلك به إلى مرضاة الله سبيلا ، ومن استعمله في إرادته وشهواته ، و لم يرع حق خالقه فيه ، خسر خسرانا مبينا . فإنه لابد من الحساب على حق هذه الأعضاء لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً** ﴾ [الإسراء : ٣٦]

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود الذي تصدر كلها عن أمره ، ويستعملها فيما شاء ، فكلها تحت عبوديته وقهره ، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله .

بيَّنَ النبي ﷺ حقيقة القلب ومهامِّه كما جاء في هذا الحديث .

عَنْ النُّعْمَان بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : ((**أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَد مُضْغَةً ، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ** ،

أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ))[١].

فهو مَلِكُهَا ، وهي المنفذة لما يأمرها به ، القابلة لما يأتيها من هديه ، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته ، وهو المسئول عنها كلها ، لأن كلَّ راعٍ مسئولٌ عن رعيته،فهو المقبول عند الله إذا سَلِمَ من غيرِ الله ، وهو المحجوب عن الله إذا صار منشغلا بغير الله .

فهو المطَالَب ، وهو المخَاطَب ، وهو المعَاتَب ، وهو الذي يَسْعَدُ بالقرب من الله إذا زكّاه ، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنسه ودَسَّاه ، هو المطيع في الحقيقة لله ، وإنما الذي ينتشر على الجوارح أنواره ... وهو العاصي المبتَعِد عن الله ، وإنما الساري على الأعضاء من الفواحش آثاره ؛ إذ كل إناء ينضح بما فيه ؛ هو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه ، وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه ... ومن جهل قلبه فهو لغيره أجهل .

ولذا كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون ، والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون . ولما علم عدو الله إبليس أن المَدار على القلب والاعتماد عليه ، أجلب عليه بالوساوس ، وأقبل بوجوه الشهوات إليه ، وزين له من الأحوال والأعمال ما يصده به عن الطريق ، وأمده من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق .

فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى ، والتعرضِ لأسباب مرضاته ؛ والتجاءِ القلب إليه وإقباله عليه في حركاته وسكناته ،

(١) البخاري : (٥٢) ، مسلم : (١٥٩٩) .

والتحقق بذل العبودية الذي هو أولى ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول ضمن عباده كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ** ﴾ [الحجر : ٤٢]

فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين ؛ وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين ، وإشعار القلب إخلاص العمل ودوام اليقين .

فإذا أُشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله من المقربين ، وشمله استثناء ﴿ **إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [الحجر : ٤٠]

ولما منَّ الله الكريم بلطفه بما أَطْلَعَ عليه عباده الصالحين ، من أمراض القلوب وأدوائها ؛ وما يعرض لها من وساوس الشياطين وأعدائها ، أَطْلَعهم على دوائها وعلاجها ، وما تفضي إليه تلك الوساوس من الأعمال ، وما يكتسب القلب بعدها من الأحوال ، فإن العمل السيئ مصدره فساد قصد القلب ، ثم يعرض للقلب من فساد العمل قسوة ، فيزداد مرضاً على مرضه حتى يموت ، ويبقى لا حياة فيه ولا نور له .

وأعظم مصيبة أن يحال بين العبد وبين قلبه ؛ فيحرم من مشاهدته ، ومراقبته ، ومعرفة صفاته ، وكيفية تقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن ؛ وأنه في لحظة قد يهوي إلى أسفل السافلين ، وينخفض إلى دركات الشياطين ؛ وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ، ويرتقي إلى عالم الملائكة المقربين ، ولخطورة تقلب القلب كان إضافته من جملة يمين النبي ﷺ كما صح : عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : كَانَتْ يَمِينُ النَّبِيِّ ﷺ : « **لاَ وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ** »[1].

---

(١) البخاري : (٦٦٢٨) .

ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصد لما يَهُبُّ ويعصف على جوانبه ونواحيه ،فهو ممن قال الله فيهم : ﴿ **نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [الحشر : ١٩]

مكانة القلب

ولما كان للقلب هذه المكانة في معرفة الله والإيمان به ؛ وجب على العبد أن يراعيه وأن يبذل جهده في متابعته ؛ فإن ثبات العبد على الهداية مرتبط باستقرار القلب ، ومخالطة الإيمان له ، ويظهر هذا جلياً لما سأل هرقل أبا سفيان قَالَ : فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لدينه بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ فَقَالَ أبو سُفْيَان : قُلْتُ : لاَ ، فكان جواب هرقل : وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لدينه بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ[1].

والقلب تُعرض عليه الأعمال خيرها وشرها ، وتعمل فيه عملها ؛ ولذا ينبغي على العبد أن يراعي وينظر فيما يتوارد على قلبه من أقوال وأفعال ويتابع أثر ذلك في قلبه ...

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « **تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا ؛ فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ ؛ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ ؛ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ، وَالآخَرُ**

---

(١)البخاري : (٧) ،مسلم : (١٧٧٣) .

أَسْوَدُ مُرْبَادًّا[١] **كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا**[٢] **لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ، وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا ، إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**[٣].

ولذلك كان يراعي النبي ﷺ أدنى تغير ، سواء على قلبه أو قلوب أصحابه ﷺ ، عَنْ الأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ أَنَّ رَسُولَ ﷺ قَالَ : ((**إِنَّهُ لَيُغَانُ**[٤] **عَلَى قَلْبِي ، وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**))[٥].

فانظر إلى الأثر الضئيل الذي يؤثر على قلب النبي ﷺ نظرا لانشغاله بما لابد منه من مصالح دنيوية ، وكيف يقابله بهذا الاستغفار .

ولذلك حذر ﷺ من إهمال تتابع الذنوب على القلب ؛ فأمر بتعجيل التوبة قبل تكاثر الذنوب ، وهجومها على القلب ، فيعلوها الران فيغطي القلب ، ويحجبه عن خالقه ومولاه .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ : ((**إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ ؛ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ ؛ فَإِنْ زَادَ زَادَتْ ؛ فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾**[٦].

بل كان يراعي ﷺ الأمر نفسه في تسوية الصفوف في الصلاة ، لما له من أثر على القلوب .

---

(١) **مُرْبَادًّا** : بياض يسير يخالط سوادا كثيرا .
(٢) **مُجَخِّيًا** : مائلا ، منكوسا .
(٣) **مسلم** : (١٤٤) .
(٤) **الغَيْن** : السحاب الأبيض
(٥) **مسلم** : (٢٧٠٢) .
(٦) **حسن** : الترمذي (٣٣٣٤) ، ابن ماجة (٤٢٤٤) ، أحمد (٧٨٩٢) .

عَنْ **أَبِي مَسْعُود قَالَ** : كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلَاة ؛ وَيَقُول : « **اسْتَوُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ ؛ لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ** »[1].

حتى القرآن ، لو وقع الخلاف المؤثر في تلاوته ، وفهمه على القلب ، يتوقف عنه ، حتى يتفق الظاهر والباطن بسؤال أهل العلم ؛ أو انشراح الصدر بما استعجم عن فهمه .

عَنْ جُنْدَب بْنِ عَبْد اللَّه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **اقْرَءُوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ قُلُوبُكُمْ ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ** »[2].

ولا تبدأ العلل والأمراض هجمة على القلب ، ولكن كما ورد في الحديث نكتة .. نكتة ، وتدور المعركة على القلب جولة .. جولة ، فإن خَلُص لله واستعان به ، قام حُرَّاسُه ومنعوا كل فتنة وردُّوها ؛ فإذا بالقلب صقل وقوي ، وصار أبيض كالصفا ، لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض .

وهناك مكدرات ، قد تُسري الفتن إلى القلوب سريانا ، وتشغله وتهجم عليه ، حتى يتعاظم خطرها ويصعب دفعها.

وربما تصل إلى إطفاء نور القلب ، وعمى العين ، وصمم الآذان ، وضعف القوة وتفتت العزيمة ، فإذا العبد قد تحول إلى فاقد الهمة ، منكسٍ إلى الوراء .

والقلوب تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

١- قلب ميت : وهذا لا وجود له فصاحبه من الأموات ، فليس له فكرة ولا ذكرى ، فهو مختوم عليه ، قد سُدت الأسباب إليه .

---

(١) مسلم : (٤٣٢) .

(٢) البخاري : (٥٠٦٠) ، مسلم : (٢٦٦٧) .

قال تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٧]

٢- قلب حيٌّ ولكنه معطل : غير مستمع للآيات لأنه مشغول عنها ، إما لعدم ورودها عليه أو لانشغاله عنها بغيرها ، مما يكدره ويعطله وهذا لا يستفيد من مشهد النعمة ولا من آيات الله ، فهو كالغائب رغم وجود الحياة فيه .

٣- قلب حيٌّ نشط مخبت لله : إذا تواردت عليه الآيات أصغى إليها وألقى السمع وأحضر القلب ، فهو شاهد القلب مُلْقي السمع ، فهو منتفع بكل ذرة من بدنه ، وكل حركة وسكنة من جوارحه ، وكل لفظة تخرج أو ترد فهو منتفع بها ، وكل ذرة في بدنه تنتفع به وتغمرها الحياة ، فلا عطل ولا تكدر ولا صعاب ، كالشمس والقمر وسائر النجوم والأبراج ، يمضي على مراد الله كتعاقب الليل والنهار .

هو الذي أراده الله واصطفاه ، وأنعم عليه وأرضاه ، فرضي عن الله ورضي الله عنه .

وهذا القلب الأخير هو الذي ينتفع بالعظة المسموعة والمشهودة . وهذا الذي نعنيه ونسعى بقلوبنا أن تكون منه ، فنحرسه ونرعاه ، ونحافظ عليه من أدنى تغير فيه ، ومن ثم لزم أن نقف أمام المكدرات التي مبدؤها كرماد تحته جمر ؛ أو مستصغر الشرر الذي لا يعبأ به صاحبه ، فإن الخطر إذا تداركه صاحبه من البداية ؛ وجد السبيل لزواله ، بخلاف ما لو استفحل وتعاظم فقد يصعب زواله .

مكدرات القلوب

والمكدرات كثيرة ولكن أصولها تدور على ما يلي:

١- التعلق بغير الله . **٢- التمني .**

٣- الْخُلْطَة . **٤- الشِّبَع .**

٥- النوم .

أولاً : **التعلق بغير الله**

وهي القاصمة التي من ابتلي بها تدنى إلى أسفل الدركات ، وحلت به أعظم المصائب والنكبات ، فقلب مال لغير الله ، وتعلق بمن سواه ، فالموت أحق به من الحياة .

فإذا التفت القلب لغير الله ، وتعلق بالمشاهد والصور والأعراض ، فتعطلت منافذه ، وتخربت جوارحه ، فالعين شاخصة لغير الله ، والسمع يرهف على من سواه ، واللسان ينطق بذكر من دونه وتعداه ، والجوارح تحركت ومضت لغير محبته ورضاه ... فعند ذلك يتعلق القلب بغيره ! فلا تسل أي ظلام حل بالقلب ، وأي نكبة ابتلي بها العبد .

فمهما عبر الطرف ونطق اللسان ، أو أشارت اليد والبنان ، ليعبروا عما في القلب من وحشة ، وما فيه من ظلمة ، وما حلت به من بلية ، وأحاطت به من رزية ؛ فلن تستطيع الأعضاء لو اجتمعت أن تعبر عن ذلك المصاب مهما أجادت وتفننت في الخطاب .

فالقلب ما خلق إلا ليكون لله ، ولا يتعلق بأحد سواه .

سعة رحمة الله ﷻ

فإذا ما صَدَقَ القلبُ مع الله ، وشملته الرحمة ، فإن أعسر الأمور تصبح سهلة ميسرة ، ينام على الشوك مع رحمة الله فإذا هو مِهَاد ، وينام على الحرير وقد أُمسكت عنه فإذا هو شوك . فسعةُ رحمتِهِ وعظيمُ إحسانه وجزيلُ لطفه بخلقه معلومة حتى مع من عصاه وخالف أمره ، وهي قضية معلومة لكل ذي عقل .

منها : إمهاله سبحانه وتعالى لأعدائه على كفرهم وجحودهم ، تأمل قول النصارى : ((**إنَّ اللَّهَ ثَالثُ ثَلاثَة**)) [المائدة : ٧٣] ، ورغم ذلك دعاهم إلى التوبة كما **قال تعالى** : ﴿ **أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [المائدة : ٧٤]

ودعا المسرفين إلى التوبة وجعلهم من جملة عباده **قال تعالى** : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر : ٥٣]

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالك **قَالَ** : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ : ((**قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي . يَا ابْنَ آدَمَ : لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي . يَا ابْنَ آدَمَ : إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**))[1] .

بل ينادي على عباده كل ليلة في الثلث الآخر من الليل ، يدعوهم ويقربهم ويصطفيهم دون خلقه .

---

(١) حسن : الترمذي (٣٥٤٠) ، وله شاهد عند مسلم (٢٦٨٧) من حديث أبي ذر .

فَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ : ((**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**))[١].

ثم تأمل إلى عظيم رحمته ، وكيف يجازي سبحانه على القليل ! بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

شكر لرجل نحّى غصن شوك عن الطريق . عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ : ((**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشي بطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَذَهُ ؛ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ**))[٢].

وغفر لبغيٍ من بني إسرائيل سقت كلباً . فعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ النَّبيُّ ﷺ : ((**بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطيفُ برَكيَّة[٣] كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ من بَغَايَا بَني إِسْرَائيلَ ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا[٤] فَسَقَتْهُ فَغُفرَ لَهَا به**))[٥].

وتجاوز عن تاجر مسرف كان يتجاوز عن الناس . عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبيِّ ﷺ قَالَ : ((**كَانَ تَاجِرٌ يُدَاينُ النَّاسَ ، فَإِذَا رَأَى مُعْسرًا قَالَ لفتْيَانه تَجَاوَزُوا عَنْهُ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا ، فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ**))[٦].

---

(١) **البخاري** : (١١٤٥) ، مسلم : (٧٥٨) .

(٢) **البخاري** : (٢٤٧٢) ، مسلم : (١٩١٤) .

(٣) **رَكيَّة** : بئر .

(٤) **مُوقَهَا** : الخف وهي كلمة فارسية معربة .

(٥) **البخاري** : (٣٤٦٧) ، مسلم : (٢٣٤٥) .

(٦) **البخاري** : (٢٠٧٨) ، مسلم (١٥٦٢) .

وأدخل الجنة رجلا كان سهلا في تعامله مع الناس . عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : ((**أَدْخَلَ اللَّهُ ﷻ رَجُلاً كَانَ سَهْلاً ، مُشْتَرِيًا وَبَائعًا ، وَقَاضيًا وَمُقْتَضيًا ؛ الْجَنَّةَ**))[(١)].

وغفر لمن تاب بعد قتل مائة نفس ، فَعَنْ أَبي سَعيد الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنْ النَّبيِّ ﷺ قَالَ : ((**كَانَ في بَني إِسْرَائيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا ، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ ، فَأَتَى رَاهبًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ هَلْ منْ تَوْبَة ؟ قَالَ : لاَ ، فَقَتَلَهُ . فَجَعَلَ يَسْأَلُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : ائْت قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ ، فَنَاءَ بِصَدْرِه نَحْوَهَا ، فَاخْتَصَمَتْ فيه مَلاَئكَةُ الرَّحْمَة وَمَلاَئكَةُ الْعَذَاب ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذه أَنْ تَقَرَّبي ، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذه أَنْ تَبَاعَدي ، وَقَالَ قيسُوا مَا بَيْنَهُمَا ، فَوُجدَ إِلَى هَذه أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفرَ لَهُ**))[(٢)].

وغفر لرجل شكّ في قدرة الله على جمعه يوم القيامة.عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبيِّ ﷺ قَالَ : ((**كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسه ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لبَنيه : إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُوني ، ثُمَّ اطْحَنُوني ثُمَّ ذَرُّوني في الرِّيحِ ، فَوَاللَّه لَئنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا . فَلَمَّا مَاتَ فُعلَ به ذَلكَ فَأَمَرَ اللَّهُ الأَرْضَ فَقَالَ : اجْمَعي مَا فيك منْهُ فَفَعَلَتْ فَإِذَا هُوَ قَائمٌ فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ! قَالَ : يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ فَغَفَرَ لَهُ**))[(٣)].

وعفا عن رجل جاء يوم القيامة بتسعة وتسعين سجلا من الذنوب والمعاصي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : ((**إِنَّ اللَّهَ**

---

(١) **حسن** : النسائي (٤٦١٧) ابن ماجة (٢٢٠٢) أحمد (٥٨/١ - ٦٧ - ٧٠) وله شاهد من حديث جابر بن عبد الله . رواه الترمذي (١٣٢٠) .

(٢) **البخاري** : (٣٤٧٠) ، **مسلم** : (٢٧٦٦) .

(٣) **البخاري** : (٣٤٨١) ، **مسلم** : (٢٧٥٦) .

سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاًّ [١] كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ، أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ ! فَيَقُولُ : لاَ يَا رَبِّ ؛ فَيَقُولُ أَفَلَكَ عُذْرٌ ؛ فَيَقُولُ : لاَ يَا رَبِّ ؛ فَيَقُولُ : بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . فَيَقُولُ : احْضُرْ وَزْنَكَ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ ؛ فَقَالَ : إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ . قَالَ : فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كَفَّةٍ ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ ، فَطَاشَتْ [٢] السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ ؛ فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ))[٣].

وفتح باب التوبة أمام عبد علم منه الرجوع والإنابة . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ قَالَ : ((أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ . ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ ، فَقَالَ : أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ . ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ ، فَقَالَ : أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ؛ اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ))[٤].

---

(١) السِّجل : الكتاب الكبير.

(٢) طَاشَتْ : أي خَفَّت .

(٣) صحيح : الترمذي (٢٦٣٩) ابن ماجة (٤٣٠٠) أحمد (٦٩٥٥) .

(٤) البخاري : (٦٤٨١) ، مسلم : (٢٧٥٨) .

المحـــبة

وأعني محبة الله سبحانه وتعالى ، فهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون ، وإليها شخص العاملون ، وإلى علمها شمر السابقون ، وعليها تفانى المحبون ، وبروح نسيمها تروح العابدون ، فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح ، وقرة العيون ، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات ، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات ، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام ، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام .

فأصل التعلق مرتبط بالمحبة ، فكلما زادت المحبة ، زاد التعلق بالمحبوب ، ولذلك صرف الله عباده الصالحين ، وأولياءه المتقين إلى محبته بعد أن أراهم آياته ، وعظيم فضله وإحسانه، وبعد أن أشهدهم نعمه ظاهرةً وباطنةً ، حتى أعجزهم عن عد نعمة واحدة ، فكيف بباقي النعم .

قال تعالى : ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤]

وأوقفهم على رحمته وبره ، وعظمته وسلطانه ، فأنزل أولياءَه أعظم منْزلة وهي الوقوف على نعمه وآلائه ، وعظيم ملكه وسلطانه ، فاستفاد منها القلبُ وعلا إيمانه وزادت محبته لله سبحانه ، فالنعم تَزيد القلب تعلقا بالمنعم .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة : ١٦٥]

فتأمل قوله تعالى : **﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾** فأخبر سبحانه أن من أحب من دون الله شيئا كحبه لله ، فهو ممن اتخذ من دون الله أندادا .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّه ﴾ فكلما زاد الإيمان ؛ بالنظر إلى نعم الله ، وعظيم آلائه ، وملكه وقدرته وسلطانه ؛ زادت المحبة ، وعظمت في قلب العبد ، فمحبة أولياء الله لله سبحانه وتعالى ، أعظم من محبة المشركين بالأنداد لأندادهم . فمحبة المؤمنين خالصة ، ومحبة الأنداد قاصرة ، لأن حظ النفس هو الغالب ، فهي محبة مختلطة . ولذلك يقولون لأندادهم الذين أحبوهم وهم في النار ، وقد حضروا جميعا كما قال تعالى : ﴿ تَاللَّه إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

[الشعراء : ٩٧ - ٩٨]

آيات الله

وآيات الله المتلوة والمشهودة تزيد القلب تعظيماً وإجلالاً لله سبحانه وتعالى . فالمسموعة التي جاءت على لسان الرسل وما أوحي إليهم ؛ وكذلك من كل ناصح ومرشد ، يدله على خيري الدنيا والآخرة ؛ والمشهود بما يراه ويشهده في هذا العالم ، من مواقع العبر وصنوف الغِيَر وأحكام القدر ، وما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله ، وما يراه العبد من عظيم الآيات والدلالات في هذا الكون مما يربط القلب بخالقه سبحانه.

ومن الآيات المشهودة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ - ١٩١]

وكما قال ﷻ : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤]

فالكون من عرشه وفرشه آيات باهرات تنبئك عن عظيم ملك الله وعظيم آياته وسلطانه ، ولكن أُلْف الآيات ، وتعود العباد على رؤيتها ، أدى إلى إعراض أكثر العباد عنها .

كما قال تعالى : ﴿ **وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** ﴾ [يوسف : ١٠٥]

ومن الآيات المسموعة ما أخبر الله عن حال الأمم الماضية من عبر وعظات .

قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ۞ هُدًى وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ [غافر : ٥٤]

وقال تعالى : ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [الحاقة : ٤٨]

وقال تعالى : ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ۞ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ [ق : ٣٦ - ٣٧]

وكذلك أيام الله التي أمر الله بالتذكير بها كما **قال تعالى :** ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴾ [إبراهيم : ٥]

وأيام الله هي فعله في الأمم ، ووقائعه التي أوقعها بأعدائه ، ونعمه التي ساقها لأوليائه .

قلب المحب

فالقلب الذي عرف الله ﷻ ، واستنار بنوره ليس فيه سوى الله ؛ يأتمر بأمره وينتهي بنهيه ، معظماً لحرماته ، يقف عند محابِّ الله فإذا هي محابّه ، ويبتعد عما يكرهه الله فإذا هي أبغض الأشياء إليه ؛ قد تعلق بربه ، فطار

شوقاً إليه وقرَّب نفسه على أعتاب الذل بين يديه ، القلوب في وادٍ وهو في واد ، لا يأنس إلا به ، ولا يستروح إلا إذا قام بين يديه .

ولما أحبه المحبون تقربوا إليه ، فتقطعوا على رؤوس الرماح في بدر وأحد وحنين ؛ طلبا للرضا ...

وهجروا الطعام والشراب في هواجر مكة ، وتركوا الأهل والديار وانتقلوا إلى المدينة ...

وتجافوا عن المضاجع في الثلث الغابر من الليل شوقاً وتقرباً إليه ....

أنفقوا النفائس تقرباً إليه وطلباً لمرضاته ...

بالحب ! صاح حرام بن ملحان لما طعن بحربة ، وتدفق الدم من صدره ؛ فزت ورب الكعبة ..

ونادى عُمَير بن الحمام لما رأى بريق السيوف ، إنها لحياة طويلة أن أكمل هذه التمرات ! وألقى تمرات بيده وقاتل حتى قتل ..

وسأل عبد الله بن جحش ربه في أُحد أن يلاقي بينه وبين كافر شديد حَرَده[1] قوي بأسه ، فيَقْتُل عبد الله ، ويبقر بطنه ، ويجدع أنفه ، ويفقأ عينه ، ويقطع أذناه ، فإذا سأله الله لم صنع بك يا عبد الله ؟ فيقول يا رب فيك . فوقع كما تمنى !

محبة الله لعبده

فإذا أحب الله عبده فلا تسل عما يجري له من عظيم بره وإحسانه ؛ فالكون كله يشهد هذه المحبة ، فما من نَسَمةٍ أو ذَرَّةٍ في الكون إلا وتحب هذا العبد الذي أحبه الله .

(١) حَرَده : غضبه .

بالحب كانت النار على إبراهيم عليه السلام برداً وسلاماً ..

ولما أحبَّ الله موسى عليه السلام ، انفلق له البحر وأنجاه من فرعون ..

ولما أحبَّ الله عيسى عليه السلام رفعه إلى السماء ..

ولما أحبَّ الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، حنّ له الجذع ، وانفلق له القمر ، وأراه مفاتيح خزائن الشام وفارس واليمن .

ولما أحبَّ الله أهل بدر قال سبحانه : اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم....

ولما أحبَّ الله الصحابة ؛ رضي عنهم وبشرهم بالجنة ....

فهو سبحانه أحبَّ أولياءه ؛ فسالم من سالمهم وحارب من حاربهم ..

استمع لهذا الحديث .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « **إِنَّ اللَّهَ قَالَ : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْب ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْه ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِه ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِه ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ ؛ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ** »[1].

ثم ماذا بعد ذلك ؟! ينادي عليك في الملأ الأعلى أن الله يحبك ! فهل استشعرت هذه المكانة وتمنيت هذه المنْزلة !

استمع لهذا الحديث .

---

(١) البخاري : (٦٥٠٢) .

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ**))(١).

فالمؤمنون في رياض الوصل يتسابقون ، وفي محبته يتنافسون ، رضوا عن الله ورضي عنهم ، وأحبهم وأحبوه ..

موكب المحبة

فأين أنت من هذا الموكب العظيم ، **وقوله تعالى** : ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ** ﴾ [الرعد : ١٥]

وقوله تعالى : ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** ﴾ [الإسراء : ٤٤]

بل انظر إلى زوار البيت المعمور ، كما وصفه النبي ﷺ في حديث الإسراء المشهور ..

عَنْ مَالِك بْنِ صَعْصَعَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**فَرُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ : هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ**))(٢).

بل انظر إلى هذا الخلق العظيم من الملائكة الذين في السماء !..

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((**إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ ، وَأَسْمَعُ**

---

(١) البخاري : (٢٢٧٢) ، مسلم : (٢٧٤٣) .

(٢) البخاري : (٦٥٠٢) .

مَا لاَ تَسْمَعُونَ أَطَّتْ[١] **السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّه ، وَاللَّه لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ**[٢] **تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّه ، لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ** »[٣].

وَيُرْوَى مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ أَنَّ أَبَا ذَرٍّ قَالَ : « **لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ** »[٤]. فيا عبد الله هل جندت نفسك لأن تكون مع هذا الركب !

أين أنت من هــذا الشعور الذي يختلج في الصــدر ويلمع في القلب ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد : ٢٨]

بل أين أنت من هذه الآيات ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ [فاطر : ١٥]

فضلُ الله على عباده

أفق على رحمة الله وفضله وإحسانه ، فهو سبحانه يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه ، فالدرهم بعشرة أمثاله ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ؛ والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محوًا ؛ وأيضا فهو سبحانه خلقك لنفسه ، وكل شيء خُلق لك في الدنيا والآخرة ، فمن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته ، وبذل الجهد في مرضاته ، وأيضا فمطلبك بل مطالب الخلق كلهم جميعا لديه لا عند أحد سواه ، وهو أجود الأجودين وأكرم الأكرمين . أعطى عبده قبل أن يسأله وفوق ما يُؤمله ، يشكر القليل

---

(١) **أَطَّتْ** : ضجت .

(٢) **الصُّعُدَات** : الطرقات .

(٣) **تُعْضَدُ** : تقطع وتستأصل .

(٤) **حسن** : الترمذي (٢٣٠٧) ، ابن ماجة (٤١٩٠) ، أحمد (٢١٠٠٥) .

من العمل وينميه ، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه ، ويسأله مَنْ في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن ، لا يشغله سمعٌ عن سمع ، ولا تُغْلطه كثرة المسائل ، ولا يَتَبَرَّمُ بإلحاح الملحين ، بل يحب الملحين في الدعاء ويحب أن يُسأل ؛ ويغضب إذا لم يُسأل ، يستحيي من عبده حيث لا يستحيي العبد منه ! ويستره حيث لا يستر نفسه ! ويرحمه حيث لا يرحم نفسه ! دعاه بنعمته وإحسانه ، وناداه إلى كرامته ورضوانه ،فأبى ! فأرسل رُسلَه في طلبه ، وبعث إليه معهم عَهْدَه ، ثم يَنْزِلُ إليه سبحانه بنفسه كل ليلة ، ويقول : من يسألني فأعطيَه من يستغفرني فأغفرَ له ؟

وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلا هو !

ولا يذهب بالسيئات إلا هو !

ولا يجيب الدعوات ، ويقيل العثرات ، ويغفر الخطيئات ، ويستر العورات ، ويكشف الكربات ، ويغيث اللّهفات ، وينيل الطلبات سواه !

فهو أَحَقُّ من ذُكر ، و أَحَقُّ من شُكر ، و أَحَقُّ من حُمد ، و أَحَقُّ من عُبد ، وأَنْصَرُ من ابْتُغى ، وأَرْأَفُ من مَلَك ، وأَجْوَدُ من سُئل ، وأَوْسَعُ من أَعْطَي ، وأَرْحَمُ من استُرْحم ، وأَكْرَمُ من قُصد ، وأعز من التُجئَ إليه ، وأَكْفَى من تُوكل عليه ؛ أرحم بعبده من الوالدة بولدها ، وأشدُ فرحاً بتوبة عباده التائبين من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يَئس من الحياة فوَجَدَها . وهو الملكُ فلا شريك له ، والفردُ فلا ندَّ له ، كل شيء هالك إلا وجهه ، لن يطاع إلا بإذنه ، ولن يُعْصَى إلا بعلمه ، يطاع فيشكر ، وبتوفيقه ونعمته أطيع ، و يُعْصَى فيغفر ، ويعفو وحقه أضيع ، فهو أقربُ شهيد ، وأجلُ حفيظ ، وأوفى وفيٍّ بالعهد ، وأعدل قائمٍ بالقسط ، حال دون النفوس ، وأخذ بالنواصي ، وكتب الآثار، ونسخ الآجال ؛

فالقلوب له مفضية ، والسر عنده علانية ، والغيب لديه مكشوف ، وكل أحد إليه ملهوف ، وعنت الوجوه لنور وجهه ، وعجزت العقول عن إدراك كنهه ، ودلت الفطرة والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه ، أشرقت لنور وجهه الظلمات ، واستنارت له الأرض والسماوات ، وصَلُحت عليه جميع المخلوقات ، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه .

وقد أحسن من قال : [ما اعتَاضَ باذلُ حُبِّه لِسوَاه من عِوَضٍ ، ولو مَلَكَ الوجودَ بِأَسْرِه]

المنحة في طيات المحنة

الابتلاء سنة أوجبها الله على عباده وأوليائه ، ليستخرج منهم التسليم والرضا بقضائه ، وليقيم بهم موكب الذل على أبوابه سبحانه **قال تعالى** : ﴿ **الم ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [العنكبوت : ١ - ٣]

والابتلاء مرتبط بالمحبة ؛ فإذا أحب الله عبده ابتلاه ، وشدَّد عليه ، ولذلك كان أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم من تابعهم .

عَنْ سَعْد بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّه ! أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً ؟ قَالَ : « **الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِه ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ ؛ وَإِنْ كَانَ فِي دِينِه رِقَّةٌ ، ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِه ؛ فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاَءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ**

مَا عَلَيْه خَطِيئَةٌ))[(١)].

وفي رواية لأبي سعيد الخدري ((**إنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بالْفَقْرِ ، حَتَّى مَا يَجدُ أَحَدُهُمْ إلاَّ الْعَبَاءَةَ يُحَوِّيهَا ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بالْبَلاَء كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بالرَّخَاء**))[(٢)].

ولذلك يرى ضِعافُ العقول البلاءَ ينْزل على أهل الإيمان ، فتجزع قلوبهم ، وربما حادوا عن الطريق ! وما علموا أن هذا البلاء على قلوب أهل الإيمان طعمه أحلى من العسل ، وريحه أطيب من المسك ، وأن الله وهب لهم من العافية أضعاف ما حمّلهم من البلاء ، وأنهم ما أحسوا بطعم النعمة في الدنيا إلا بعد حلول البلاء ، وما نالوا الدرجة الرفيعة التي بوأهم إياها إلا بعد فترة طويلة من المعاناة ، فكم من مِنَحٍ لم تأت إلا بعد محن ، وكم من عطايا لم تأت إلا بعد رزايا ، والدنيا قُلَّبٌ لا تدوم على حال ، والسعيد من رضي عن الله في السرّاء والضراء ، وصبر على أمره سبحانه حتى حلول الأجل ، وكما **قال تعالى** : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة : ٢٤]

فانظر إلى عظيم تكريم الله لهم ! أن بوأهم هذه المكانة ، وأنزلهم هذه المنْزلة ، واصطفاهم على من معهم ممن أُورثوا الكتاب ، وما ذلك إلا على صبرهم على أقدار **الله** ﷻ الشرعية والكونية ، مع الرضا التام والإيمان اللازم . ثم انظر كيف بوأ الله الأنبياء هذا المكانة وهذه المترلة بصبرهم على أقدار الله والرضا بها ، بل كيف اصطفى منهم أولي العزم من الرسل كما **قال تعالى** :

---

(١)**صحيح** : الترمذي (٢٣٩٨) ، ابن ماجة (٤٠٢٣) ، أحمد (١٤٨٤) ، الدارمي (٢٧٨٣) .

(٢)**صحيح** : البخاري (الأدب المفرد ٥٢٠) ، ابن ماجة (٤٠٢٤) ، الحاكم (المستدرك ٣٤٢/٤) البيهقي (السنن الكبرى ٩٩/١) أبو يعلى (المسند ١٠٤٥) .

﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ** ﴾ [البقرة : ٢٥٣]

ولذلك أمر الله نبيه ﷺ أن يصبر كصبر هؤلاء عليهم السلام .

قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف : ٣٥]

ولذلك نرى أن النبي ﷺ نال القسط الأكبر ، والحظ الأوفر من البلاء ؛ فصبر واحتسب .

عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « **لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّه وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّه وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَة وَمَا لِي وَلِبِلاَلٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلاَّ شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلاَلٍ** ». قَالَ أَبُو عِيسَى : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيث حِينَ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ هَارِبًا مِنْ مَكَّةَ وَمَعَهُ بِلاَلٌ . إِنَّمَا كَانَ مَعَ بِلاَلٍ مِنَ الطَّعَامِ مَا يَحْمِلُهُ تَحْتَ إِبْطِه[1].

فخرج من مكة طريداً ، وعاد إليها ومعه أصحابه فاتحا لها ؛ وسيوفهم مسلطة على رؤوس قريش ، ثم يعفو عنهم ويصفح .

ولذلك نرى الصحابة ﷺ ومن بعدهم من سلف الأمة نالوا قسطا كبيرا في هذا الباب ؛ مما أعلى من شأنهم ورفع من قدرهم .

---

(١) **صحيح** : الترمذي (٢٤٧٢) ، ابن ماجة (١٥١) ، أحمد (١١٨٠٢) ، ابن حبان (١٤/٦٥٦٠) أبو يعلى (المسند ٣٤٢٣) .

فهذا بلال الذي كان يسحب في رمضاء مكة ، ويوضع الطوق في رقبته ، ويطوف به الصبيان في شوارع مكة ، فلما صبر ؛ أَذَّن فوق الكعبة ! فَسُمِع تكبيره في رباع مكة .

وهذا ابن مسعود الذي كان يرعى الغنم في سهول مكة وهضاها ، رأى النبيّ ﷺ يوضع على ظهره سلا الجزور ؛ وما يملك إلا الدمع ينْزل على وجنتيه ، وهو عاجز أن يتكلم بكلمة ، فلما صبر على أمر الله ؛ يصعد في يوم بدر على صدر أبي جهل وهو يتشحط في دمه ! فيقول له أبو جهل : لقد رقيت مرتقاً صعباً يارويع الغنم ، فيتزل ابن مسعود ويحز رأسه .

أبو بكر ﷺ ارتدت العرب في عهده وأوشك أن ينْزوي الإسلام حتى ما أقيمت الجمعة إلا في المسجدين مكة والمدينة .فلما صبر على أمر الله وقام قَوْمَةً يقتلع بها الجبال الرواسي ، عاد الإسلام كما كان وزاد ، حتى مات ﷺ وجنوده على حدود فارس والروم .

وهذا أبو جعفر المنصور ذاق مرارة الفقر ، حتى ما كان يجد كسرة الخبز ، أو ثوباً صحيحاً يلبسه ، ملك الدنيا ! حتى أنه أنفق في يوم واحد لكل واحد من عمومته عشرة آلاف ألف – ما سبقه إليها خليفة ، وترك في بيوت الأموال من النقدين أربعة عشر ألف ألف دينار وستمائة ألف ألف درهم .

كان له قميص مرقوع من أيام الصبا ، رأته جاريته فكلمته ، فقال :

قَدْ يُدْرِكُ الشَّرَفَ الْفَتَى وَرِدَاؤُهُ   خَلَقٌ وَجَيْبُ قَمِيْصِه مَرْقُوعُ

وهذا الإمام أحمد يُمتحن ، ويحبس ، ويجلد ، ويهدد بالقتل ، وهو صابرٌ محتسبٌ ، فيخرج من المحنة إماماً للسنة .

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمِّية قضى أكثر أيامه في خوف . من السلطان تارة ، ومن المبتدعة تارة ، ما بين ضيقٍ في العيش وألم في الحبِّس ؛ فأعلا الله

قدره وأعظم شأنه ، حتى ما ترى صاحب سنة إلا ولشيخ الإسلام عليه منة وفضلا . بل جنَّد الله له دولة تنشر كتبه وتوزعها ، بعدما حجبها أهل الضلال والبدع .

ولذلك لا تتعجب حينما تسمع قول النبي ﷺ : ((**وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلاَءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ**)).

هذا مع ما يدخره الله لهم في الآخرة من عظيم الأجر ووافر العطاء .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ ، وَلاَ وَصَبٍ ، وَلاَ هَمٍّ ، وَلاَ حُزْنٍ ، وَلاَ أَذًى ، وَلاَ غَمٍّ ؛ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا ، إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**))[1].

هذا لمن ثبت على أمر الله ، وصبر على قضاءه .

انظر لهذه الأبيات وهي لأبي ذؤيب الهذلي ؛ مات أبناؤه الخمسة بالطاعون في عام واحد ؛ فأنشد فيهم قصيدة من أروع المراثي يقول فيها :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ

فَالْعَيْنُ بَعْدَهُمُ كَأَنَّ حِدَاقَهَا ... سُمِلَتْ بِشَوْكٍ فَهِيَ عُورٌ تَدْمَعُ

حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ ... بِصَفَا الْمُشَرَّقِ كُلَّ يَوْمٍ تُقْرَعُ

لا بُدَّ مِنْ تَلَفٍ مُقِيمٍ فَانْتَظِرْ ... أَبِأَرْضِ قَوْمِكَ أَمْ بِأُخْرَى الْمَصْرَعُ

إلى أن قال :

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ

فمن الذي يستمع لهذه الأبيات ولا يتأثر بها ، وهي قصيدة طويلة تقارب السبعين بيتاً ، يعبر فيها عن محنته وفقده لأولاده ، وهو يظهر الجلد ورباطة الجأش .

(١) البخاري : (٥٦٤٢) ، مسلم : (٢٥٧٣) .

ولذلك طلب النبي ﷺ من الأنصار أن يصبروا على ما سيلاقون من حرمان في الدنيا ، وبشّرهم بما لهم في الآخرة .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك ﷺ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**للأَنْصَارِ إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً ، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي ؛ وَمَوْعِدُكُمْ الْحَوْضُ**))[1].

ولذلك ورد أن أهل العافية في الدنيا يتمنون أنْ لا قوا أشد البلاء ، لما يرون يوم القيامة من عظيم الأجر لأهل البلاء .

عَنْ جَابِر قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : ((**يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَة يَوْمَ الْقِيَامَة حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلاءِ الثَّوَابَ ؛ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا**))[2].

فكثير من الناس يقيس الرضا من الله والسُّخط بما يعطي الله العبد من الدنيا أو يمنع ، أو يرفع أو يخفض . فهذه موازين قاصرة قال تعالى : ﴿ **انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٢١]

وما قدروا الله حق قدره

فيا عبد الله هل قدَّرت الله حق قدره بعد أن انفتح قلبُك على آلائه ، وأعيا عقلُك كُنْهَهُ وصفاته ، وأحاطت بك نعماءه ، وشملتك الرحمة ، فلم يأخذك بذنوبك وآثامك ... فهل قدَّرت ربك حق قدره فتعلق به فؤادك ، وذلّت له أركانك !..

فلم يقدره حق قدره من هان عليه أمرُه ، فخالفه وعصاه ، ونهيُه فارتكبه ، وحقُّه فضيعه ، وذِكْرُه فأهمله ، وغفل قلبه عنه ، وكان هواه آثر عنده من

---

(١) **البخاري** : (٣٧٩٣) ، مسلم (١٠٥٩) .

(٢) **حسن** : الترمذي (٢٤٠٢) ، البيهقي (السنن الكبرى ٣/٣٧٥) ، الطبراني (المعجم الصغير ٢٤١) ابن أبي الدنيا (المرض والكفارات ٢٠٢) ، وروي موقوفا على ابن عباس وابن مسعود .

طلب رضاه ، وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله ، فللّه الفَضْلَةُ من قلبه وعلمه وقوله وعمله وماله ، وسواه المقدم في ذلك ! لأنه المهم عنده ، يستخف بنظر الله إليه ، واطلاعه عليه ، وهو في قبضته وناصيته بيده ، ويعظِّم نظر المخلوق إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه ، ويستخفي من الناس ولا يستخفي من الله ، ويخشى الناس ولا يخشى الله ، ويعامل الخلق بأفضل ما عنده وما يقدر عليه ، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره ، وإن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد ، وبذل النصيحة ؛ وقد أفرغ له قلبه وجوارحه ، وقَدَّمَه على كثير من مصالحه ؛ حتى إذا قام في حق ربه إن ساعده زيادة وقت ! قام قياما لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله ، وبذل له ما يستحيي أن يواجه به مخلوق مثله ، فهل قدَّر الله حق قدره من هذا وصفه ، وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الإجلال ، والتعظيم ، والطاعة ، والذل ، والخضوع ، والخوف ، والرجاء . فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكا في ذلك ؛ لكان ذلك جراءةً وتوثباً على محض حقه ، واستهانة به ، وتشريكا بينه وبين غيره فيما لا ينبغي ، ولا يصلح إلا له سبحانه ؛ فكيف ! وإنما أشرك معه أبغض الخلق إليه ، وأهونهم عليه ، وأمقتهم عنده ، وهو في الحقيقة ما عبد من دون الله إلا الشيطان كما قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** ﴾ [يس : ٦٠ - ٦١]

فكيف بمن أنزل الشيطان هذه المنْزلة ، فأطاعه في كل ما أمر به ونهى ، وخالف أمر ربه وغوى ، ثم بعد ذلك يدعي أنه عبد لله !

معوقات عن ركب الهدى

الانقطاع عن الله من أعظم المهلكات ، فلا حرمان أشد ممن حُرِم عن الله ، ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على ربه ومولاه ، واشتغاله بذكره ، وتنعمه بحبه ، وإيثاره لمرضاته ، بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك ، فعدمه أشد الأشياء ألماً له وأشد عذابا عليه ، وإنما تغيب الروح عن شهود هذا الألم والعذاب لاشتغالها بغيره ، واستغراقها في ذلك الغير ؛ فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم العقوبة بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها ، وهذا بمنْزلة السَّكْران المستغرق في سُكره ؛ الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده ؛ وهو لاستغراقه في السُّكر لا يشعر بألم ذلك الفوات وحسرته ، حتى إذا صحا وكُشِف عنه غطَاء السُّكر ، وانتبه من رقدة الخمر ، فهو أعلم بحاله حينئذ ، وهكذا الحالَ سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والإشراف على مفارقة الدنيا والانتقال منها إلى الله ، بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعاف أضعاف ذلك ، فإن المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته في الدنيا بالعِوض ، ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له ، فكيف بمن مصيبته بما لا عوض عنه ولا بدل منه ، ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعا ، فلو قضي الله سبحانه بالموت من هذه الحسرة والألم ؛ لكان العبد جديراً به ! وأن الموت لا يعيد أكبر أمنيته وأكبر حسراته ، هذا لو كان الألم على مجرد الفوات ! كيف وهناك من العذاب على الروح والبدن أمور أخرى وجودية لا يقدر قَدْرها ، فتبارك من حَمَّل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي .

فأعرض على نفسك الآن أعظم محبوب لك في الدنيا وأنت لا تطيب لك الحياة إلا معه ! فأصبحت وقد أُخذ منك ، وحيل بينك وبينه ، وأنت

أحوج ما كنت إليه كيف يكون حالك هذا ! وكل شيء له عوضٌ ، فكيف بمن لا عوض عنه كما قيل :

مِنْ كُلِ شَيْءٍ إِذَا ضَيَّعْتَه عِوَضٌ وَمَا مِنَ اللهِ إِنْ ضَيَّعْتَـهُ عِوَضُ

فمن انقطع عن الله ، وتكدر عليه قلبه بالملهيات ، وتشتت في دنيا زوالها محتوم ، ورزقها مقسوم ، ولن يأخذ منها إلا ما قدر له ؛ فهو الخاسر لا محالة .

قال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨]

وقال تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٢]

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ ۞ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾
[القصص : ٦٠ - ٦١]

بل جعل الله الموت والقتل خيرًا مما جمعوا من حطام فان .

قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران : ١٥٧]

وهذا يوسف عليه السلام يجعل السجن أحب إليه مما تدعوه إليه امرأة العزيز والنسوة ، واستجار بربه سبحانه خشية أن يتعلق قلبه بهن فيفارق محبوبه وهو الله . **قال تعالى عنه : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾**
[يوسف : ٣٣]

فيا عبد الله لا تنشغل بغير الله وارض بما قسم الله لك ، ولا تزدر نعمة الله عليك . فإن أردت أن تقف أمام هذه النعم فانظر لمن هو دونك في العطية ، أو من ابتلاه **الله** ﷻ وعافاك .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُول اللَّه ﷺ قَالَ : « **إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ** »[1].

وكلما انشغل القلب عن الله ذهب سروره وضعفت عزيمته ..

وأورث حزناً لا ينقطع عنه أبداً ، سببه :

خوف الانقطاع عن هذه اللذة الحاضرة ؛ فأورث حزنا أذهب هذه اللذة .

انطفاء نور القلب رويداً رويداً ؛ فتحل ظلمة الجهل بدلا من هذا النور .

وحشة التفرق عن الله ، وما أظن عذابا يعدلها .

أعظم الخسارة

فأعظم الخسارة أن يتعلق القلب بغير الله ، فالتعلق بغيره سبحانه وتعالى سفه ، والانشغال بما دونه نقص في العقل ورقّةٌ في الدين ..

فمن أدخل بينه وبين الله وسائط ، يحبهم كحب الله ، ويعظمهم كتعظيم الله ، يرجوهم ويخافهم ، فهذا من أقبح الظلم ..

قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم : ٢٨]

فمن أقبح الظلم أن يُعْطَى حَقُّهُ لغيره ، أو يشرك بينه وبينه فيه ، ولا سيما الذي جعله شريكه في حقه هو عبده ومملوكه ، فإذا كان أحدكم يأنف

---

(١) **البخاري** : (٦٤٩٠) ، **مسلم** : (٢٩٦٣) .

أن يكون خادمه شريكًا له في رزقه ، فكيف تجعلون له من عبيده شركاء فيما هو متفرد به ، وهو ((الألوهية)) التي لا تنبغي لغيره ، ولا تصح لسواه ، فمن زعم ذلك فما قدّره حق قدره ، ولا عظّمه حق تعظيمه ، ولا أفرده بما هو متفرد به وحده دون خلقه ، فما قدَّر الله حق قدره من عبد معه غيره .

أكثر الناس يظن أنه إذا توضأ ببعض الماء ، أو أتى المسجد فصلى ركعتين ، أن هذه هي العبادة ! ثم يدعي في المجالس أنه يؤدي حق الله !

بل لو قيس وضوءه وصلاته بميزان الشرع ؛ لوجدنا أن صلاة المسيء في عهد النبي ﷺ أفضل من صلاته ؛ ورغم ذلك قال النبي ﷺ له ارجع فصلي فإنك لم تصل ، فكيف لو رأى النبي ﷺ صلاة هؤلاء . هذا والصلاة هي الحصن الأخير من الإسلام ، من تعداها وتخطاها قفز خارج الإسلام .

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ عَنْ رَسُول اللَّه ﷺ قَالَ : ((**لَيُنْقَضَنَّ عُرَى الإِسْلاَمِ عُرْوَةً عُرْوَةً ، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا ، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ وَآخِرُهُنَّ الصَّلاَةُ**))[1].

وما علم المسكين أن العبادة هي جملة التكاليف التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾
[الأحزاب : ٧٢]

---

(١) **حسن** : أحمد (٢١٦٥٦) ، ابن حبان (٦٧١٥/١٥) ، الحاكم (المستدرك ٩٢/٤) .

يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي[1] :

يعظم الله شأن الأمانة ، التي ائتمن الله عليها المكلفين ، التي هي امتثال الأوامر ، واجتناب المحارم ، في حال السر والخفية كحال العلانية .

وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة ، السماوات ، والأرض ، والجبال ؛ عرض تخيير لا تحتيم ؛ وأنك إن قمت بها وأديتها ،على وجهها ، فلك الثواب ، وإن لم تقومي بها ولم تؤديها ، فعليك العقاب ﴿ **فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا** ﴾ أي : خوفاً أن لا يقمن بما حُمِّلن ، لا عصياناً لربهن ، ولا زهداً في ثوابه .

وعرضها الله على الإنسان ، على ذلك الشرط المذكور ، فقَبلها وحملها مع ظلمه وجهله ، وحمل هذا الحمل الثقيل .

فانقسم الناس بحسب قيامهم بها وعدمه إلى ثلاثة أقسام :

منافقون : قاموا بها ظاهراً لا باطناً ، ومشركون : تركوها ظاهرا وباطنا ومؤمنون : قائمون بها ظاهراً وباطناً .فذكر الله تعالى أعمال هؤلاء الأقسام الثلاثة ، ومالهم من الثواب والعقاب **فقال تعالى** : ﴿ **لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً** ﴾[الأحزاب : ٧٣]

فله الحمد ، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين ، الدالين على تمام مغفرة الله ، وسعة رحمته ، وعموم جوده .

مع أن المحكوم عليهم ، كثير منهم ، لم يستحق المغفرة والرحمة ، لنفاقه وشركه .ا.هـ

---

(١) عند تفسير الآية .

انظر ! فلو أن السماوات حملت ما حمل الإنسان لما طاقت .

ولو أن الأرض حملت ما حمل الإنسان لخارت .

ولو أن الجبال الراسيات حملت ما حمل الإنسان لعجزت وهاضت .

ثم يظن هذا المسكين أن هذه التكاليف هي هذه الركعات ! هيهات هيهات !

من جملة التكاليف أن يسجد القلب لله سجدة لا يقوم منها أبدا .

من جملة التكاليف أن يَذلَ القلبُ ، والجوارح لله فلا يذل لأحد سواه .

من جملة التكاليف أن تُفَرِّغَ قلبك لله فلا يكون فيه سوى الله .

من جملة التكاليف أن تعمل العمل لله ، وتتركه لله ، أن تكون حركاتك وسكناتك وأنفاسك لله .

من جملة التكاليف ألاّ تتحرك كل ذرة فيك إلا بأمر من الله .

من جملة التكاليف أن إذا رأيت القدر يجري بما لا يفهمه العقل ، أن تُلْزِم العقل الإذعان للمقدور وخصوصاً فيما لا يعلم العقل معناه ، كإيلام الأطفال أو حرق جماعة من الحجاج بعد أن فرغوا من أداء مناسكهم ، أو إغناء هذا وإفقار هذا ، أو إصحاح هذا وإسقام هذا وما في معناه ، مع علمك ويقينك أن الْمُقَدِّرَ لذلك والآمر به وفاعله هو أرحم الراحمين .

فيكون التسليم وترك الاعتراض من جملة التكاليف .

حتى أنك تسمع عن بعض الصحابة أنهم كانوا يخافون من تبعات هذه الأمانة ، حتى تمنوا أنهم لم يخلقوا !

قال الهيثم بن عبد الصمد : حج أبي مع يزيد الرقاشي ؛ فقال : ربما ركبت أنا وهو في المحمل من أول الليل إذا صلينا العتمة ، فيمر بالجبل فيقول :

يا جبل تصير هباء منثورا ، وتصير كذا ، وتصير كذا ، ويبقى على يزيد الحساب .

قال : ثم يبكي ؛ فما أفقد بكاءه حتى يطلع الفجر ![1].

فمن لم يعرف الحكمة من خلقه ، ولم يفهم التكاليف التي حُمِّلَها ، والأمانة التي أُلْزِمْها فالأنعام السائمة خير منه .

من صور التعلق بغير الله

فمن تعلق بغير الله وانصرف بقلبه إلى من سواه فلا تسل بأي واد هلك ..!

فلا لذة ولا نعيم أعظم من التعلق بالله ؛ ولا شقوة ولا جحيم أعظم من التعلق بغيره .

ومن الأصول التي يتعلق بها القلب

أولا : النفس وما تهوى

فأعظم المصاب أن يبتلى الإنسان بنفسٍ دنية ، يتعلق بها ويأتمر بأمرها .

فالنفس خلقها الله إما أمارة وإما لوامة ، فمن أخذها بزمام الحق وألجمها بلجام الاتباع نجا ، ومن تركها تقوده ، وسار خلفها هلك.

وقد خاطب الله العبد بالتقوى ، ثم وجه الخطاب للنفس لتنظر إلى مآلها وما ستصير إليه .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر : ١٨]

وقال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٧ - ١٠]

فإن أحكم رباط العقل والدين ، انقادت لهما النفس ؛ وإن ضعف وانحل ، تفلتت النفس على صاحبها ، فهو مؤتمر بأمرها منته بنهيها .

---

(١) ابن أبي الدنيا (المتمنين ١١٨) .

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات : ٤٠ - ٤١]

استمع إلى قول امرأة العزيز كما ذكر عنها ربها سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٣]

فهوى النفس مُضلٌّ ، فإذا انقطعت أَزِمَّةُ الشريعة تحول الهوى إلى آمر ناه ..

كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ٥٠]

وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ [الكهف : ٢٨]

وقال تعالى : ﴿ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ [طـه : ١٦]

وكما صحَّ في الحديث عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ))[1].

بل ربما يتحول هوى النفس إلى إله يُعبد من دون الله .

قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [الفرقان : ٤٣]

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية : ١٨]

---

(١) سبق بتمامه : مسلم (١٤٤) .

وقال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٣]

معرفة النفس

فإذا تبين لك حقيقة النفس ؛ ظهر لك أنها منبع كل شر ، وأساس كل نقص ، وأن حدها كما وصفها ربها جاهلة ظالمة ؛ وأنه لولا فضل الله ورحمته بتزكيتها ما زكت أبدا ، ولولا هُدَاهُ ما اهتدت ، ولولا توفيقه لما كان لها من وصولٍ إلى خيرٍ ألبته .

تأمل حديث « سيد الاستغفار » وما فيه من إظهار مقام الذل والفقر والعجز أمام **الله** ﷻ.

فَعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: « **سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ**[1] **لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ ، قَالَ : وَمَنْ قَالَهَا مِنْ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ قَالَهَا مِنْ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ** »[2].

فنفسك التي بين جنبيك ليس لها من ذاتها إلا العدم .. عدم الذات – عدم الكمال ، فإذا علم العبد ذلك حقاً فقال موقناً « **أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي** » فإذا مات على ذلك دخل الجنة .

---

(١) **أَبُوءُ**: أقر وأعترف .

(٢) **البخاري**: (٦٣٠٦) .

فمعرفة النفس والوقوف عند خطرها ومحاسبتها على الصغير ، والكبير ، والنقير ، والقطمير ، هو هدي السلف ﷺ .

وقد يكون حظ النفس : شُهْرَة أو شَهْوَة أو رِئَاسة أو حَمية أو مَنْزلة عند الناس ؛ فيتحول العمل الذي في ظاهره لله لغير الله .

قال تعالى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ... ﴾ [الحج : ٣٧]

وقال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ [الفرقان : ٢٣]

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً ؛ فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّه ؟ قَالَ : ((**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّه هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّه**))[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : ((**قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاء عَنْ الشِّرْك ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**))[2].

وقفة مع النفس

وفي محاسبة النفس عدة مصالح منها الاطلاع على عيوبها ، ومن لم يطّلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته ، فإذا اطّلع على عيبها مقتها في ذات الله تعالى .

---

(١) البخاري : (٧٤٥٨) ، مسلم : (١٩٠٤) .

(٢) مسلم : (٢٩٨٥) .

صور من المحاسبة

أبو بكر رضي الله عنه

دخل عمر على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وهو يجبذ لسانه فقال له عمر : مه غفر الله لك ، فقال أبو بكر : إن هذا أوردني الموارد[١].

عمر رضي الله عنه

عن الأحنف قال : قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا أحنف من كثر ضحكه قلت هيبته ، ومن مَزَحَ استُخفَّ به ، ومن أكثر من شيء عُرِف به ، ومن كثر كلامه كثر سَقَطُه ، ومن كثر سَقَطُه قلّ حياؤه ، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه ، ومن قلّ ورعه مات قلبه[٢].

أبو الدرداء رضي الله عنه

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله ، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتا[٣].

الفضيل بن عياض رحمه الله

قال : المؤمن يحاسب نفسه ويعلم أن له موقفا بين يدي الله تعالى ، والمنافق يغفل عن نفسه ، فرحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول ملك الموت به[٤].

الحسن البصري رحمه الله

قال : المؤمن قوّام على نفسه ، يحاسب نفسه لله وإنما خفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شقَّ الحساب يوم القيامة

---

(١) حسن : مالك (الموطأ ١٧٨٨) .

(٢) ابن الجوزي (صفة الصفوة ١/٢٨٧) .

(٣) ابن جرير : التفسير عند الآية (٤٤) سورة البقرة .

(٤) الخطيب (تاريخ بغداد ٤/١٨٤) .

على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ، إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه فيقول والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي ولكن والله ما من صلة إليك هيهات هيهات حيل بيني وبينك ، ويَفْرُطُ منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ما أردت إلى هذا ! مالي ولهذا ! والله لا أعود إلى هذا أبدا .

إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلكتهم ، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته لا يأمن شيئا حتى يلقى الله ؛ يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه ، وفي بصره ، وفي لسانه ، وفي جوارحه ، مأخوذ عليه في ذلك كله[1].

ميمون بن مهران رحمه الله

قال : لا يكون العبدُ تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه .

وقال أيضا : إن التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان عاص ، ومن شريك شحيح[2].

الأحنف بن قيس رحمه الله

كان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه ، ثم يقول حسْ يا حُنَيْف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ! ما حملك على ما صنعت يوم كذا ![3].

أبو مسلم الخولاني رحمه الله

وكان علق سوطاً في المسجد فكان يقول : أنا أولى بالسوط من البهائم ، فإذا فتر مشق ساقيه سوطا ، أو سوطين[4].

---

(١) ابن المبارك (الزهد ١٠٣) .

(٢) هناد بن السري (الزهد ٢/١٢٢٨) .

(٣) الذهبي (السير ٤/٩١) .

(٤) الذهبي (السير ٤/٩) .

ثانيا : الدنيا وزينتها

فينبغي للعبد أن يعلم أنه مسافر إما عاجلا وإما آجلا ، فالتعلق بالدنيا والانشغال بها يورث هما لا ينقطع ، وشغلا لا ينفض ، وقد يُعَطِّلُ العبد عن داره التي خلق لها .

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران : ١٤]

ولذلك قال تعالى بعدها مباشرة : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ١٥]

وكان ﷺ يحذر من عواقب التعلق بالدنيا ، وأن العبد منتقل لا محالة وأنه فيها غريب مسافر .

لقي النبي ﷺ يوماً شاباً من شباب الصحابة ﷺ ؛ ألا وهو عبد الله بن عمر ، فوعظه بهذه الموعظة ؛ أثرت فيه لآخر عمره ﷺ .

استمع لهذه الموعظة وهي كلمات تعد على الأصابع !

عَنْ عَبْد اللَّه بْن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : أَخَذَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ : ((**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ ؛ وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ : إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ ؛ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ**))[1].

---

(١) البخاري: (٦٤١٦) .

قال الحافظ في ((الفتح))[1] : قال ابن بطّال : لما كان الغريب قليل الانبساط إلى الناس ، بل هو مستوحش منهم ، إذ لا يكاد يمر بمن يعرفه مستأنس به ، فهو ذليل في نفسه خائف ، وكذلك عابر السبيل ، لا ينفذ في سفره إلا بقوته عليه وتخفيفه من الأثقال ، غير متثبت بما يمنعه من قطع سفره ، معه زاده وراحلته يبلغانه إلى بغيته من قصده ، شبهه بهما وفي ذلك إشارة إلى إيثار الزهد في الدنيا ، وأخذ البُلغة منها والكفاف ، فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يُبَلِّغه إلى غاية سفره ، فكذلك لا يحتاج المؤمن في الدنيا إلى أكثر مما يبلغه المحل ، وقال غيره هذا الحديث أصل في الحث على الفراغ عن الدنيا ، والزهد فيها والاحتقار لها ، والقناعة فيها بالبُلغة .

وقال النووي: معنى الحديث ، لا تركن إلى الدنيا ، و لا تتخذها وطنا ، ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها ، ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه .

وقال غيره: عابر السبيل هو المار على الطريق طالبا وطنه ، فالمرء في الدنيا كعبد أرسله سيده في حاجة إلى غير بلده ، فشأنه أن يبادر بفعل ما أرسل فيه ثم يعود إلى وطنه ، ولا يتعلق بشيء غير ما هو فيه .

وقال غيره: المراد أن يُنْزِلَ المؤمن نفسه في الدنيا منْزلة الغريب ، فلا يعلق قلبه بشيء من بلد الغربة ، بل قلبه متعلق بوطنه الذي يرجع إليه ، ويجعل إقامته في الدنيا ليقضي حاجته وجهازه ، للرجوع إلى وطنه ، وهذا شأن الغريب. أو يكون كالمسافر لا يستقر في مكان بعينه بل هو دائم السير إلى بلد الإقامة.أ.هـ

---

(١) عند الحديث (٦٤١٦) .

حقيقة الدنيا

قال تعالى : ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ [الحديد : ٢٠]

فهذا وصف من خلقها ، أنها لعب ولهو ، وزينة وتفاخر ، وتكاثر في الأموال والأولاد ، وأنها متاع زائل ، وأنها متاع الغرور.

ولذلك قال سبحانه بعدها : ﴿ **سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الحديد : ٢١]

قال الحافظ في ((الفتح))[1] : قال ابن عطية : المراد بالحياة الدنيا في هذه الآية ما يختص بدار الدنيا من تصرف ، وأمّا ما كان فيها من الطاعة وما لا بد منه مما يقيم الأود ويعين على الطاعة ، فليس مرادا هنا . والزينة ما يتزين به مما هو خارج عن ذات الشيء ، مما يُحَسَّنُ به الشيء .

والتفاخر يقع بالنسب غالبا كعادة العرب ، والتكاثر ، ذُكر متعلقه في الآية . وصورة هذا المثال أن المرء يولد فينشأ فيقوى فيكسب المال والولد ، ويرأس ثم يأخذ بعد ذلك في الانحطاط ، فيشيب ، ويضعف ، ويسقم ، وتصيبه النوائب من مرض ، ونقص مال وعز ، ثم يموت ، فيضمحل أمره ، ويصير ماله لغيره ، وتغير رسومه ، فحاله كحال أرضٍ أصابها مطر ، فنبت

(١) عند حديث (٦٤١٥) .

عليها العشب نباتا معجبا أنيقا ثم هاج - أي يبس واصفر - ثم تحطم وتفرق إلى أن اضمحل .

قال : واختلف في المراد بالكفار ، **فقيل** : جمع كافر بالله لأنهم أشد تعظيما للدنيا ، وإعجابا بمحاسنها .

وقيل : المراد بهم الزُّرّاع مأخوذ من كفر الحب في الأرض ، أي ستره بها ، وخصهم بالذكر لأنهم أهل البصر بالثبات ، فلا يعجبهم إلا المعجب حقيقة. ملخصا أ.هـ .

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ** ﴾ [لقمان : ٣٣]

فأي عاقل ينشغل بها ، بل أي صاحب حس يسمع وصف الله عز وجل لها ، ثم يتعلق بها . بل استمع لوصف النبي ﷺ لها .

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلاً مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ ، وَالنَّاسُ كَنَفَتُهُ ؛ فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ[1] مَيِّتٍ ؛ فَتَنَاوَلَهُ ، فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ : ((**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ**)) ؛ فَقَالُوا : مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ ؛ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ ؛ قَالَ : ((**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ**)) ؛ قَالُوا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لأَنَّهُ أَسَكُّ ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ فَقَالَ : ((**فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**))[2].

---

(١) أَسَكُّ : مقطوع الأذن .

(٢) **مسلم** : (٢٩٥٧) .

فانظر لهذا الوصف ! جدي أسك - أي لا أذن له - وهو عيب فيه،ثم ميت ! أي عُدِمت منه المنفعة ، هكذا الدنيا عند من عرف معناها ، وعقل المراد منها .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**))(١).

سجن المؤمن لما يحبس نفسه عن الشهوات والملذات ، بخلاف الكافر الذي يرتع فيها بلا ضابط من دين أو شرع .

وَعَنْ عَبْد الله بْن الشِّخِّير قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ قَالَ : ((**يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي مَالِي ، قَالَ : وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ**))(٢).

التعلق بالدنيا

فماذا بعد جمع ابن آدم !! فما أبقت له الدنيا ! طعامٌ ضاعت لذته بعد مضغه ثم إلى أين يصير ! أو ثياب تبلى على مر الأيام والسنين ! أو صدقة تلازم العبد قبره وتنجيه من عذاب أليم .

ولذلك خاف النبي ﷺ على أمته من بسط الدنيا ، وانفتاحها عليهم فيكون فيها الهلاك ، استمع لهذا الحديث .

عَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْف الأَنْصَارِيَّ قَالَ : قَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنْ الْبَحْرَيْنِ فَسَمِعَتْ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ ، فَوَافَتْ صَلاَةَ الصُّبْحِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا صَلَّى بِهِمْ الْفَجْرَ انْصَرَفَ فَتَعَرَّضُوا لَهُ ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ ؛ وَقَالَ : ((**أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَيْءٍ**)) ؛ قَالُوا : أَجَلْ يَا

---

(١)مسلم : (٢٩٥٦) .

(٢)مسلم : (٢٩٥٨) .

رَسُولَ اللَّه ؛ قَالَ : ((**فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ ؛ فَوَاللَّه لاَ الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنْ أَخَشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ؛ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا ؛ وَتُهْلِككُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**))[١].

وَعَنْ **الْمُسْتَوْرِد بْنِ شَدَّاد قَالَ** : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : ((**وَاللَّه مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ**))[٢].

قال الحافظ في ((الفتح))[٣]:

لما أورد الغزالي حديث المستورد في الإحياء ، عَقَّبَه بأن قال ما ملخصه :

اعلم أن مثل أهل الدنيا في غفلتهم ، كمثل قوم ركبوا سفينة فانتهوا إلى جزيرة معشبة ، فخرجوا لقضاء الحاجة ، فحذرهم الملاح من التأخر فيها ، وأمرهم أن يقيموا بقدر حاجتهم ، وحذرهم أن يقلع بالسفينة ويتركهم ، فبادر بعضهم فرجع سريعا فصادف أحسن الأمكنة وأوسعها فاستقر فيه .

وانقسم الباقون فرقاً

الأولى : استغرقت في النظر إلى أزهارها المونقة ، وأنهارها المطردة ، وثمارها الطيبة ، وجواهرها ومعادنها ، ثم استيقظ فبادر إلى السفينة ؛ فلقي مكانا دون الأول فنجا في الجملة .

الثانية : كالأولى لكنها أكبت على تلك الجواهر ، والثمار ، والأزهار ، ولم تسمح نفسه لتركها ؛ فحمل منها ما قدر عليه ، فتشاغل بجمعه وحمله ، فوصل إلى السفينة فوجد مكانا أضيق من الأول ؛ ولم تسمح نفسه برمي ما

---

(١) **البخاري** : (٣١٥٨) ، **مسلم** : (٢٩٦١) .

(٢) **مسلم** : (٢٨٥٨) .

(٣) عند حديث (٦٤١٥) .

استصحبه فصار مثقلا به ؛ ثم لم يلبث أن ذبلت الأزهار ويبست الثمار وهاجت الرياح فلم يجد بدا من إلقاء ما استصحبه حتى نجا بحشاشة نفسه .

الثالثة : تولجت في الغياض ، وغفلت عن وصية الملاّح ؛ ثم سمعوا نداءه بالرحيل ، فمرت فوجدت السفينة سارت ؛ فبقيت بما استصحبت في البر حتى هلكت .

والرابعة : اشتدت بها الغفلة عن سماع النداء ، وسارت السفينة فتقسموا فرقا ، منهم من افترسته السباع ، ومنهم من تاه على وجهه حتى هلك ، ومنهم من مات جوعا ، ومنهم من نهشته الحيات .

قال : فهذا مثل أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ، وغفلتهم عن عاقبة أمرهم ثم ختم بأن قال: وما أقبح من يزعم انه بصير عاقل ، أن يغتر بالأحجار من الذهب ، والفضة ، والهشيم من الأزهار ، والثمار ، وهو لا يصحبه شيء من ذلك بعد الموت والله المستعان .أ.هـ

ويجب أن نعلم أن تعلق العبد بما سوى الله تعالى مضرة عليه ، إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته غير مستعين به على طاعته ، فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضره ذلك .

فإن العبد لو أحب سوى الله ما أحب فلا بد أن يسلبه ويفارقه ، فإن أحبه لغير الله فلابد أن تضره محبته ويعذب بمحبوبه ، إما في الدنيا وإما في الآخرة ، والغالب أنه يعذب به في الدارين .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنْ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ يَوْمَ

يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة : ٣٤ - ٣٥]

عاقبة التعلق بالدنيا

فالتعلق الزائد بالرزق ؛ من مالٍ ، ومطعمٍ ، ومسكنٍ ، ينغص على القلب صفوه ، إذ ابن آدم طموح ، وكلّما ضعف دينه زاد تعلقه بالحياة ، ولذلك بيّن سبحانه تعلق الكفار بالحياة ، أياً كانت هذه الحياة ، **قال تعالى** : ﴿ **وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة : ٩٦]

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ **أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ** ﴾ وحياة « مُنَكَّرة » ، أيْ أيَّ حياة شريفة ، أو ذليلة في طاعة ، أو معصية .

بَعَثَ أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ إِلَى قُرَّاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ؛ فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثَلاَثُ مِائَةِ رَجُلٍ ، قَدْ قَرَءُوا الْقُرْآنَ فَقَالَ : أَنْتُمْ خِيَارُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، وَقُرَّاؤُهُمْ فَاتْلُوهُ ؛ وَلاَ يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ الأَمَدُ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ كَمَا قَسَتْ قُلُوبُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ؛ وَإِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً كُنَّا نُشَبِّهُهَا فِي الطُّولِ وَالشِّدَّةِ بِبَرَاءَةَ ؛ فَأُنْسِيتُهَا غَيْرَ أَنِّي قَدْ حَفِظْتُ مِنْهَا « لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لابْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ » وَكُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً كُنَّا نُشَبِّهُهَا بِإِحْدَى الْمُسَبِّحَاتِ فَأُنْسِيتُهَا ؛ غَيْرَ أَنِّي حَفِظْتُ مِنْهَا ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ** ﴾ فَتُكْتَبُ شَهَادَةً فِي أَعْنَاقِكُمْ فَتُسْأَلُونَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ [1].

---

(١) **مسلم** : (١٠٥٠) .

ولن يؤتى العبد من الدنيا إلا ما قُدِّر له : أرزاق مضمونة ، قد قسمها ربنا تبارك وتعالى ؛ وآجال مضروبة قد حددها ربنا تبارك وتعالى قبل خلق الخليقة بخمسين ألف سنة . فما الذي يَعُوقُ العبد عن طاعة رب الأرض والسماء . عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ : ((**نَفَثَ رُوحُ الْقُدُسِ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْساً لَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا ، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ ؛ ولا يَحْمِلَنَّكُم إِسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوه بِمَعْصِيَةِ اللهِ ؛ فَإِنَّ اللهَ لا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلاَّ بِطَاعَتِه**))[1].

ولا يزال العبد يتعلق بالمال ، ويزيد انشغاله به حتى ينشغل عن الله ؛ فتتحول محابه إلى ماله ، فيوالي عليه ، ويعادي عليه ! يفرح إن زاد ، ويسخط إن قل . هو همه ، وفرحه ، ورغبه ، ورهبه .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((**مَنْ كَانَتْ الآخِرَةُ هَمَّهُ ، جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِه ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ؛ وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ ، جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْه ، وَفَرَّقَ عَلَيْه شَمْلَهُ ، وَلَمْ يَأْته مِنْ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ**))[2].

قَصَةَ

تقول إحدى الأخوات : كنا معا في أطيب حال وأهنأ بال ، زوجين متحابين سعيدين متعاونين على طاعة الله ، عندنا القناعة والرضا ، طفلتنا مصباح الدار ، ضحكاتها تفتق الأزهار ، إنها ريحانة تهتز . فإذا جن علينا الليل ونامت الصغيرة قمت مع زوجي نسبح الله ، يؤمُّني ويرتل القرآن ترتيلا ، وتصلي معنا الدموع في سكينة وخشوع ،كأني أسمعها وهي تقول : أنا إيمان

(١) حسن: الطبراني (الكبير ٧٦٩٤/٨) أبو نعيم (الحلية ٢٧/١٠) .
(٢) حسن: الترمذي (٢٤٦٥) .

فلان وفلانة ، وذات يوم أردنا أن تكثر الفلوس ، فاقترحت على زوجي أن نشتري أسهما ربوية ، لتكثر منها الأموال ، وندخرها للعيال ، ووضعنا فيها كل الأموال حتى حُليِّ الشَّبْكة ، ثم انخفضت أسهم السوق ، وأحسسنا بالهلكة ، فشربنا من الهموم كأسا ، وكثرت علينا الديون والتبعات ، فعلمنا أن الله يمحق الربا ويربي الصدقات .

وفي ليلة حزينة خلت فيها الخزينة ، تَشَاجَرْتُ مع زوجي ، فطلبت منه الطلاق ، فصاح أنت طالق ، أنت طالق !... فبكيت وبكت الصغيرة ، وعبر الدموع الجارية تذكرت جيداً يوم أن جمعتنا الطاعة وفرقتنا المعصية .

ثالثا : التعلق بالزوجة والولد

وقد يتعلق القلب بزوجة ، أو ولد ، أو بإنسان ؛ ذي منصبٍ ، أو جاهٍ ، أو مالٍ ؛ فيهلك فيه .

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التغابن : ١٤]

عَنْ يَعْلَى الْعَامِرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ يَسْعَيَانِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَضَمَّهُمَا إِلَيْهِ وَقَالَ : ((**إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ**))[1].

وقد يتعلق القلب بامرأة ؛ فتفسد عليه عقله وقلبه . فما من فتنة أشد على الرجال من النساء **كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾** [آل عمران : ١٤]

---

(١) حسن: ابن ماجة (٣٦٦٦) أحمد (١٧١١٢) وفيه سعيد ابن أبي راشد ، قال الحافظ : مقبول . ورواه الحاكم (المستدرك ٣/٣٣٥) من طريق الأسود بن خلف ﷺ وزاد (مجهلة محزنة) .

وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ**))[1].

فالقصد القصد فيهن فإنهن من زينة الحياة ، هذا إذا كان التعلق بالحلال ، كالزوجة فإذا زاد فضرره عظيم ومفسدته لا يعلم مداها إلا الله .

فإذا كان التعلق بمتعة حرام ، من نظرة أو شهوة استقرت في القلب ، فلا تسل بأي واد هلك العبد .

وقد برع الناس في شَغْلِ القلوب ، من عشق وغرام ، حتى تحولت قلوب المسلمين كالبيت الخرب ، إلا ما رحم ربي .

أخبرني أحد الشباب أن أباه - وكان مدرساً بإحدى المدارس النظامية ، قد تخطى الستين من عمره ، قد أوصل جهازه التلفاز بما يسمى ((بالطبق الفضائي)) أو ((الدش)) ، لأنه مدمن للأفلام الأجنبية . فلما رأى الشاب الحالة التي وصل إليها أباه أخذ الجهاز الذي يعمل به الطبق وألقاه في البحر ، فجن جنون الأب ؛ حتى هم أن يسلم ولده للشرطة لولا أنه وحيده .

فانظر لحال هذا الرجل كم تخرج على يديه من شباب ، وهو بهذه الصورة حتى بعد أن تجاوز سن التخرج الوظيفي ! فإلى الله المشتكى .

الحقيقة الغائبة

هذا الذي تعلق بغير الله ، خاف غيره ورجاه ، وابتغى عنده حطاما فان ، من مال أو متع وغيره ، كله سيزول وينقضي ، ولا يبقى إلا الأثر .

ما هي الدنيا ! متعة زائلة ، أو شهوة عارضة لا يخلو صفوها من كدر، حلالها حساب وحرامها عذاب .

---

(١) البخاري : (٥٠٩٦) ، مسلم : (٢٧٤٠) .

قال تعالى : ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ۞ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران : ١٩٦ - ١٩٧]

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ [الرعد : ٢٦]

فهو سبحانه يوسع الرزق على من شاء ، ويقتّر على من شاء ، لما له في ذلك من حكَم لا تدركها العقول ، ففرح أهل الدنيا بما وسع الله عليهم ، وما علموا أن الحياة الدنيا متاع سيزول ، وأن مردَّهم إلى الله .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۞ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ۞ وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٣٣ - ٣٥]

فالعاقل اللبيب ؛ يقف عند هذه الآيات فيختار الآخرة فهي خير وأبقى .

وَعَنْ عُبَيْد اللَّه بْن محْصَن الْخَطْميِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : ((**مَنْ أَصْبَحَ منْكُمْ آمنًا في سرْبه**[١] **مُعَافًى في جَسَده عنْدَهُ قُوتُ يَوْمه فَكَأَنَّمَا حيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**[٢])).

فالدنيا هي لحظتك ، ما مضى لن يعود ، وما هو آت فهو مغيب .

فعش لحظتك في طاعة الله ، واجتهد على الثبات ، ولا تجعل أحدا يلحق بك .

فإذا انقطع السير عن الآخرة ، فمهما تنعم العبد في الدنيا أو تمتع فنعيمه منغص .

---

(١) سرْبه : الأهل والعيال والطريق .

(٢) الترمذي (٢٣٤٦) ، ابن ماجة (٤١٤١) .

وقد يُبتلى العبد بالفقر ويكون له نعمة ، ويُبتلى بالغنى ويكون عليه نقمة ، والرضا بقضاء الله هو النعمة .

استمع لهذه الآيات قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۞ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٤٢ - ٤٥]

ففي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ أي ابتلاهم الله بشدة الفقر وشدة المرض والعلة في ذلك **﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾** أي يلجئون إلى الله بذُلِّهم ، وضَعْفهم ، وعجزهم ، حتى يرفع عنهم البلاء ؛ ولذلك قال ﷻ **﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾** أي صُرفوا عن الذل والضراعة لله ﷻ ، وانخرطوا في غيهم وآثامهم ولذلك قال ﷻ **﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾** صُبَّ عليهم نعيم الدنيا صباً ، وهذا بداية العذاب ! أن يُرْزَقَ العبد النعمة ولا يعرف مُوجدَهَا ، فيحرم الشكر ، ويبتلى بالكبر والجحود فإذا هُمْ حال غفلتهم ولهوهم جاءهم أمر الله **﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾** فلما دهمهم أمر الله يئسوا من كل خير .

الانشغال بالآخرة سبب للتعلق بالله

فيا عبد الله انشغل بالآخرة ، يكفيك الله همك ، ويسد فقرك وعجزك .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: ((**مَنْ كَانَتْ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِه وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْه وَفَرَّقَ عَلَيْه شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِه مِنْ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ**))[1].

فسابق إلى الله وأسرع إليه الخطو ، ولا تجلس مكانك تتمنى ، فإن قدوم الليل لا يشك فيه عاقل ، وكذلك انتهاء الأجل .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ((**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللَّه غَالِيَةٌ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللَّه الْجَنَّةُ**))[2].

يَا رَاقِدَ اللَّيْلِ مَسْرُورًا بِأَوَّلِه   إِنَّ الْحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحَارَا

انظر إلى حال بيت النبي ﷺ، وما كان يمر به كما تصف عائشة رضي الله عنها لعروة بن الزبير : عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ : وَاللَّه يَا ابْنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلاَلِ ثُمَّ الْهِلاَلِ ثُمَّ الْهِلاَلِ ثَلاَثَةَ أَهِلَّة فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّه ﷺ نَارٌ قَالَ : قُلْتُ : يَا خَالَةُ فَمَا كَانَ يُعَيِّشُكُمْ قَالَتْ الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ إِلاَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّه ﷺ جِيرَانٌ مِنْ الأَنْصَارِ وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ[3] فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ مِنْ أَلْبَانِهَا فَيَسْقِينَاهُ [4].

---

(١) الترمذي (٢٤٦٥) .

(٢) الترمذي (٢٤٥٠) .

(٣) المنَائح : شاة أو ناقة يعطيها صاحبها رجلا يشرب لبنها ويطعمها ثم يردها إذا انقطع اللبن .

(٤) **البخاري**: (٦٤٥٩) ، مسلم : (٢٩٧٢) .

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((**لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلاَّ شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلالٍ**))[1] .

ورغم ذلك كان من أسعد الناس وأشرحهم صدرا .

قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ** ﴾ [الشرح : ١]

فمن تعلق بمال ، أو تجارة ، أو عقار ، أو أرض ، أو وظيفة ، وزاد تعلقه بها من محبة ورغبة ورهبة ، وقع في الشرك .

قال تعالى : ﴿ **فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾ [التوبة : ٥٥]

فهو في عذاب في طلب المال والولد ! فإن حصَّله ، فهو في عذاب بالمحافظة عليه من الذهاب ، وفي عذاب في تنمية هذا المال ، وفي عذابٍ من خوف زوال المال والولد .

فانشغاله به أورثه عذابا أعظم مما حققه من اللذة العارضة بالمال والولد .

فكل من انشغل بجمع المال ، ضاع زمن تمتعه ، وإذا تم المطلوب ، فالشيب أقبح قذى ، وأعظم مبغض .

ثم إن صاحب المال رغم خوفه على ماله ، مذموم من كل من عامله ، إن أسرف وإن قتَّر .

ولده يرصد موته ، وزوجته لا ترضاه لشخصه .

أمضى زمانه في محن ، واللذات معتادة لا لذة فيها ، فإنّ أُلْف اللّذة يورث مللاً ، ثم لا بد من المفارقة .

---

(١) **صحيح** : الترمذي (٢٤٧٢) ، ابن ماجة (١٥١) ، أحمد (١١٨٠٢- ١٣٦٤١) .

لقد عظم انشغاله حتى صار عبدا لما انشغل به ؛ فجمع بين تعاسة الدنيا والآخرة . ولذلك وصفه النبي ﷺ بأنه (عبد) فصرف الحب ، والرغبة ، والرهبة ، والانشغال ؛ إلى ماله وتجارته .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « **تعسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ**[١] **وَالْخَمِيصَةِ** [٢] **إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ** »[٣].

والتعاسة : الشر اللازم ؛ فيستحيل أن يُوَفَّرَ له ما شغله عن الله ، سعادة أو راحة .

فلو أيقن العبد أن رزقه مضمون ، وأجله محتوم ، ولن يأتيه من الدنيا إلا ما قدر له ، فهو ثابت الفؤاد ؛ لا تلعب به الدنيا ، ولا تغيره ما يحدث فيها من تقلبات وغِيَر ، إن أصابه سراء شكر ، وإن أصابه ضراء صبر ، فضلا من الله ونعمة .

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « **عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ** »[٤].

فالمؤمن راضٍ عن الله ، غير متسخط لتغير الدنيا وتقلبها ، لأنه تعلق بالآخرة ، وعلم أنه مقبل على رب رحيم ودود ، يكافئه ويجازيه على القليل بالكثير ، فهو في الدنيا متعلق بالله يرجو رحمته ويخشى عذابه ، فلا يرجو أحداً سواه .

---

(١) **الْقَطِيفَة** : كساء غليظ .
(٢) **الْخَمِيصَة** : ثوب مخطط من حرير أو صوف .
(٣) **البخاري** : (٤١٣٦) .
(٤) **مسلم** : (٢٩٩٩) .

ثانيا : التمني

والتمني والأمل قرينان ، إلا أن الأمل صاحبه يقدم بين يديه سببا ، بخلاف التمني فصاحبه يريد شيئا بلا سبب ، والتمني ينقسم إلى محمود ومذموم . فما كان من أمر الآخرة فهو محمود ؛ لأن العبد لن يبلغ الجنة بعمله . فهو يتمنى فوق عمله بعد استيفاء الأسباب التي أمر الله بها ، فطمع في رحمة الله ؛ فتمنى مالا يبلغه عمله ، وما كان من أمر الدنيا!فإن كان عونا على الآخرة فهو محمود ، وإن كان من أمر الدنيا محض فهو سفه ، ونقص في العقول فإن الدنيا والآخرة ضرتان إن انشغل بواحدة أضر بأختها ، ثم لن يأتيه مما تمنى إلا ما قُدِّر له ،قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[يونس : ٢٤]

تأمل قوله تعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا** ﴾ أي وصلوا إلى قمة الغفلة عن الله ، واغتروا بما في أيديهم ، ونسوا موجدهم ، وفرحوا بما عندهم ، وبينما هم كذلك بهتهم أمر الله ،كما قال تعالى : ﴿ **أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ** ﴾ فأذهبهمالله ﷻ ، وأذهب ما بأيديهم .

ولكن من يعتبر بآيات الله ، ويقف عند الحقائق التي أوقف الله عباده عليهاكما قال تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ .

فالتمني المحمود هو رضى الله والجنة مع أخذ الأسباب بما أمر الله به ..

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً ﴾[الإسراء : ١٩]

وقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ قِيلاً ﴾[النساء : ١٢٢]

ثم قال سبحانه بعدها مباشرة :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً ﴾[النساء : ١٢٣]

نري الكثير اغتر بحلم الله عليه ، وبلطفه به ، وبإسباغ النعم ظاهرة وباطنة مع تقصيره وغفلته ، فعاش في الأمنية التي عاش فيها أهل الكتاب . كما قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[الأعراف : ١٦٩]

قال قتادة : إي والله لخلف سوء بعد أنبيائهم ورسلهم ، أورثهم الله وعهد إليهم ، تمنوا على الله أماني وغرّة يغترون بها ، لا يشغلهم شئ عن شئ ، ولا ينهاهم شئ عن ذلك ، كلما هفّ لهم شئ من الدنيا أكلوه ، لا يبالون حلالا كان أو حراما(١).

حسدوا من فوقهم في الطاعات ، وبغوا عليهم ؛ وتعالوا على من دونهم في المعاصي ، وقتروا عنهم ، ويقولون سيغفر لنا !

---

(١) (ابن كثير) عند ذكر الآية .

ومن الخير تمني فعل الخيرات مع أخذ أسبابها ، فإن عجز عن إيجاد السبب يؤجر على نيته ؛ وكذلك تمني الشر مع العجز عن إتيانه يأثم صاحبه.

عَنْ أَبِي كَبْشَةَ الأَنْمَارِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((**إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ ؛ عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْمًا ، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا ؛ فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ . وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً ، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ : لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ ؛ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ . وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا ؛ فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لاَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَلاَ يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا ؛ فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ . وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالاً وَلاَ عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ : لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ**))[1].

فإذا استغرق العبد في الأماني بدون ضابط من شرع وعجز عن تحقيق الأمنية ، حسد من فوقه ، وتعالى على من تحته وربما وقع في البغي .

فأول جريمة قتل وقعت بين بني الإنسان سببها الأمنية التي يصعب تحقيقها . وهي كما ذكر المفسرون : أن الله شرع لآدم أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال ، وكان يولد في كل بطن ذكر وأنثى ، فكان يزوج أنثى هذا البطن لأنثى البطن الآخر ، وكانت أخت هابيل دميمة ، وأخت قابيل وضيئة ، فتمناها وأراد أن يستأثر بها ، فمنعه آدم إلا أن يُقَرِّبا قُربانا ، فقربا ، فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر كما ذكر الله قصتهما .

---

(١) **حسن** : الترمذي (٢٣٢٥) ، ابن ماجة (٤٢٢٨) ، أحمد (١٧٥٧٠) .

قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۞ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۞ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۞ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧ - ٣٠]

فالأماني تورث عدم الرضى والسخط على أقدار الله ﷻ عند من لا إيمان له ، بخلاف المؤمن الذي يعلم أن تقدير الأمور من عند الله سبحانه ، وأن العبد لا ينال من الدنيا إلا ما قُدر له .

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((**عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**))(١).

ولذلك إذا انشغل الإنسان بالخير ، وأخذ أسبابه مع تمني الغاية في بلوغ مراده نال الأجر العظيم وبلّغه الله فوق ما تمنى ، ورضّاه بما قُسم له .

وقتك هو رصيدك ورأس مالك

فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة ، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم ، ومادة المعيشة الضنك في العذاب الأليم ، وهو يمر أسرع من مر السحاب ، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره ، وغير ذلك ليس محسوبا من حياته ، وإن عاش فيه عاش حياة البهائم ، فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة ، أو كان خير ما قطعه به النوم والبطالة ،

---

(١) مسلم : (٢٩٩٩) .

فموت هذا خير له من حياته ، وإذا كان العبد وهو في الصلاة – ليس له من صلاته إلا ما عقل منها ، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله .

فعمرك الذي هو رصيد عملك في هذه الحياة ،يأتي الشيطان فيضيعه عليك بالأماني الكاذبة ، فإذا بالعبد يؤمل ويتمنى ، حتى يهجم عليه الموت فيرى أنه أضاع دينه ودنياه .

ولذلك انظر إلى حال الشيطان مع أولياءه قال تعالى : ﴿ .. **وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَرِيداً ۝ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ۝ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذْ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً ۝ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً** ﴾ [النساء : ١١٧ – ١٢٠]

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ **يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ** ﴾ ثم قال ﷻ : ﴿ **وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً** ﴾ .

كم من أناس أقعدهم الوهم ، وألهتهم الأماني ، وشغلهم الأمل ؛ فضيعوا العمر بدون فائدة . فإذا الأماني والآمال كانت سرابا ، وجاء الموت بغتة حين لا ينفع الندم .

وإليك هذا المثال الذي ضربه النبي ﷺ للمتمني ، والمؤمل ، وهو غافل عن أنياب المنايا ..

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا ؛ وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ ؛ وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ . وَقَالَ : هَذَا الإِنْسَانُ ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ أَوْ قَدْ

أَحَاطَ به ، وَهَذَا الَّذي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ ، وَهَذه الْخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ ؛ فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا ، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا ..[1]

فأما التمني الذي هو من شيم المفلسين ، ومن طباع البطّالين ، مما يرد من الخطرات والفكر، فإما وساوس شيطانية ، وإما أماني باطلة ، وخدع كاذبة ، بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكارى ، والمحشوشين ، والموسوسين ، فهذا هو الباطل بعينه ، فصاحبه لا نال لذةً في الدنيا ، ولا نعيماً في الآخرة .

قال الحسن البصري : إن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني ، إن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل[2].

أما هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم ، وانقطعوا عن خالقهم وباريهم ؛ لسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق :

إِنْ كَانَ مَنْزِلَتِي فِي الْحَشْرِ عِنْدَكُمُ ... مَا قَدْ لَقِيتُ ، فَقَدْ ضَيَّعتُ أَيَّامي
أُمْنِيَّــةُ ظَفِرَتْ نَفْسِي بِــهَا زَمَناً ... والْيَوْمَ أَحْسَبُها أَضْغَاثَ أَحْــلام

أخي الحبيب : اعلم أن الأماني بحر المفاليس ، وأن المتمني قد يكون قاصر العقل ، ضعيف الدين ، ينظر إلى الحياة بمنظار قاصر ؛ فإذا عاين الحقيقة ندم على ما تمنى كما وقع مع قوم قارون **قال تعالى** : ﴿ **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِه فِي زِينَتِه قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّه خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ** ﴾ [القصص : ٧٩ - ٨٠]

(١) **البخاري** : (٦٤١٧) .

(٢) ابن أبي شيبة (المصنف ٧/٣٥٢١٨) .

لما نظر هؤلاء البسطاء الجهال الذين ينظرون إلى الدنيا بمنظار الساعة ، وعين الحاضر ، لما نظروا إلى المكانة التي تبوءها قارون ؛ انخلعت قلوبهم رغباً للمكانة التي عليها ، حتى قالوا : ﴿ **يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ . فإذا بهؤلاء الذي تمنوا مكانه ؛ لما خسف الله به ، وبأمواله وبدوره ، ندموا على ما تمنوا . فهم الذين تمنوا ! وهم الذين ندموا على الأمنية ! وهذا دلالة على قصور عقولهم .

قال تعالى : ﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِينَ ۞ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [القصص : ٨١ - ٨٢]

وكذلك ترى المنافقين لما عاشوا في حياتهم على الأماني الكاذبة واغتروا بها ، حرموا أعظم نعمة ! نعمة الإيمان ؛ بل كان إيمانهم في الدنيا وميض سرعان ما ينطفئ حتى سلبوا النور بالكلية ، وكذلك حالهم في الآخرة .

ألا تعلم أنهم لما حرموا النور يوم القيامة ، بخلاف أهل الإيمان ، كان من ضمن أسباب حرمانهم : استغراقهم في الأماني كما **قال تعالى** : ﴿ **يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۞ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمْ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ** ﴾ [الحديد : ١٣ - ١٤]

وربما تتحقق للإنسان أمنيته من الدنيا ، ولا يسعفه الوقت في استعمالها ، أو لا يجد الصحة التي يقيم بها هذه المتع التي تمناها .

حُكي أن رجلا كان فقيرا في شبابه ، وكان يتمنى المال ، والعبيد ، والجواريَ ، والمتع ؛ فلما جاوز السبعين استغنى ، وملك ، واشترى العبيد الأتراك ، والجواريَ من الروم وغيرها ؛ فإذا العمرُ قد ولى ، والصحة قد تلفت فقال هذه الأبيات :

ما كُنْتُ أَرْجوهُ إذ كُنْتُ ابنَ عشْرينا … مَلَكْتُه بعــد أن جاوزتُ سَبْعينا

تَطُــوفُ بــي منَ الترك أغــزلَةٌ … مثلُ الغصون على كثبان يَبْرينــا

وخُرْدٌ[1] من بنــات الروم رَائعةٌ … يَحْكين بالحُسْن حُورَ الجَنَة العينا

يَغْمزْنَنــي بأســاريعَ[2] مُنَعَّمَــة … تكادُ تَعْقــدُ من أَطْرَافــها لينــا

يُردْنَ إحْــيَاءَ مَيْت لا حــرَاكَ به … وكيف يُحْيين مَيْتــاً صَارَ مَدْفُونا

قَالــوا أَنينُكَ طُولَ الليلِ يُسْهرُنَا … فَمَا الذي تَشْتَكي ! قُلْتُ الثَّمَانينا

فانظر إلى حال هذا الرجل نال ما تمناه ، فإذا أمانيه تحولت إلى عذاب ! فما أشقى حال هؤلاء .

واعلم أن ورود الخاطر لا يضر ؛ وإنما يضر استدعاؤه ، ومحادثته فالخاطر كالمار على الطريق فإن تركته مر ، وانصرف عنك ؛ وإن استدعيته سحرك بحديثه ، وخدعه ، وغروره ، وهو أخف شيء على النفس الفارغة الباطلة ، وأثقل شيء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة. فهناك نفوس تسبح عند العرش ، وهناك نفوس لا تتعدى الحش[3].

---

(١) **خُرْد** : البكر التي لم تُمْسَسْ ، جمع خَرُود .

(٢) **أساريع** : عصب في اليد .

(٣) **الحش** : أي أماكن قضاء الحاجة .

وقد أحسن من قال :-

أَنْتَ يَا مَفْتُونُ مَا تَبْرَحَ فِي بَحْرِ الْمَنَام فَدَعِ السَّهْو وبَادر مِثْل فعْلِ الْمُسْتَهام
وَسُـحِّ الدَّمْـعَ عَلَى مَـا أَسْلَفْتَهُ وابْكِ ولا تَلْو عَلَى عـذْل المـلام
أَيُّهَا اللائِمُ دَعْني لَسْتُ أُصْغي لِلْمَلام إِنَّني أَطْلُبُ مُلْكاً نَيْلُهُ صَعْبُ الْمَـرام
في جنَان الخُلْد والفرْدَوْس في دَار السَّلام وَعَرُوساً فَاقَت الشَّمْسَ مَعَ بَدْرِ التَمَام
طَرْفُهَا يُشْرِقُ بالخَط مُضياً بالسهَام ولها صَدْغٌ على خَد كَنُون تحتَ لام
أحْسَنُ الأَتْرَاب قَدّا في اعْتدَال وَقَوام مَهْرُهَا مَنْ قَام لَيْلاً وهو يَبْكي في الظَّلام

التمني على الله

فإن العبد إذا تمنّ على الله فليستكثر ، فإن الله لا يعجزه شيء ؛ فخزائن السماوات والأرض بيده ؛ وهو سبحانه وتعالى له الآخرة والأولى ؛ يؤتي العبد فوق ما يتمنى كما **قال تعالى** : ﴿ **وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾ [إبراهيم : ٣٤]

فأخلص عملك لله ، وتمنّ ثم تمنّ ... ممن بيده الآخرة والأولى ، الخلق جميعا إليه فقراء ، وهو الغني ، استمع لهذا الحديث .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ : ((**يَدُ اللَّه مَلأَى لاَ يَغِيضُهَا**[١] **نَفَقَةٌ سَحَّاءُ**[٢] **اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**)) ، وَقَالَ : ((**أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَـلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ ، عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَى الْمِيزَانُ ؛ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ**))[٣].

بل استمع لندائه على عباده سبحانه وتعالى .

---

(١) يَغيضُهَا : ينقصها .
(٢) سَحَّاءُ : كثير العطاء والبركة .
(٣) البخاري : (٧٤١١) ، مسلم : (٩٩٣) .

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ : ((**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ؛ فَلاَ تَظَالَمُوا . يَا عِبَادِي : كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ . يَا عِبَادِي : كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ . يَا عِبَادِي : كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ . يَا عِبَادِي : إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ . يَا عِبَادِي : إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، يَا عِبَادِي : لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي : لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي : لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ . يَا عِبَادِي : إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ ؛ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ**))(١).

انظر إلى عظيم فضله على عباده ؛ أنه سبحانه وتعالى منع نفسه من الظلم لعباده كما قال ﷻ : ﴿ **وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٠٨]

وقال ﷻ : ﴿ **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً** ﴾ [طـه : ١١٢]

---

(١) مسلم : (٢٥٧٧) .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** ﴾ [النساء : ٤٠]

فهو سبحانه وتعالى رغم قدرته عليه ؛ ولا يسمى ظلماً لأنه متصرف في حقه سبحانه ، إلا أنه لم يفعله فضلا وتكرما وإحسانا منه إلى عباده .

ثم انظر كيف دعاهم إليه ، وقربهم منه ؛ فهو الذي يهدي ، وهو الذي يُطعم ، وهو الذي يكسي ، وهو الذي يغفر الذنوب .

ثم انظر كيف بيّن لعباده أنهم جميعاً عجزة ، وأنهم فقراء إليه سبحانه ، وأن هدايتهم لن تزيد في ملك الله شيئاً ، وأن ضلالهم لن ينقص من ملك الله شيئاً ، وأن الخلق جميعا لو وقفوا في مكان واحد واختلفوا في المسألة لأعطى كل واحد ما أراد ؛ دون أن ينقص مما عنده شئ ! ثم أخبرهم أنه سبحانه يحصي عليهم الأعمال ، ثم يحاسبهم بها يوم القيامة فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

أخي الحبيب : عَظِّم الأمنية ، وزد في رغبك ورهبك ، وتمنى من ربك ما شئت فإنه لا يعجزه شئ .

رفع الله عن هذه الأمة الإصر والأغلال التي كانت على الأمم الماضية ، فغفر ذنوبها ومحا سيئاتها بأقرب رجوع .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿ **لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [البقرة : ٢٨٤]

قَالَ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ فَقَالُوا : أَيْ رَسُولَ اللَّهِ كُلِّفْنَا مِنْ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ ، الصَّلاَةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلاَ نُطِيقُهَا ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « **أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ**

قَبْلكُمْ : سَمعْنَا وَعَصَيْنَا ، بَلْ قُولُوا : سَمعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصيرُ ». قَالُوا : سَمعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصيرُ . فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بهَا أَلْسنَتُهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ في إِثْرهَا ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بمَا أُنْزلَ إلَيْه منْ رَبِّه وَالْمُؤْمنُونَ كُلٌّ آمَنَ باللَّه وَمَلاَئكَته وَكُتُبه وَرُسُله لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَد منْ رُسُله وَقَالُوا سَمعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخذْنَا إنْ نَسينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قَالَ : نَعَمْ . ﴿ رَبَّنَا وَلاَ تَحْملْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذينَ منْ قَبْلنَا ﴾ قَالَ : نَعَمْ . ﴿ رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا به ﴾ قَالَ : نَعَمْ . ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافرينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] قَالَ : نَعَمْ[1].

ثم تتعاظم رحمة الله بعبده عند لقائه ، فيرى من الله البر ، والإحسان ، والصفح والغفران ، فيتمنى أن ازداد في طاعته ، وتفانى في بذل النفس فما دونها.

فهذا الشهيد الذي أكرمه الله ﷻ فقدم روحه وصدق مع الله أتدري ما أمنيته! استمع لهذا الحديث .

عَنْ أَنَس بْنِ مَالك ﷺ عَنْ النَّبيِّ ﷺ قَالَ : « مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحبُّ أَن يَرْجعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ منْ شَيْءٍ إلاَّ الشَّهيدُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّات لمَا يَرَى منَ الْكَرَامَة »[2].

وقد نهى النبي ﷺ عن تمنّي الموت في الدنيا عسى أن يضاف إلى حسناته حسنات ، أو يمحى من سيئاته ، وما تمنى الشهيد ذلك إلا لما تعاظم أجر الله له .

---

(١) مسلم : (١٢٥) .

(٢) البخاري : (٢٨١٧) ، مسلم : (١٨٧٧) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((**لاَ يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ**))[١].

وكلما دنا العبد من ربه ، قربه الله إليه وعظمه وأدناه ، وكانت معية الله معه في السراء والضراء ، استمع لهذا الحديث .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً** [٢]))[٣].

أماني لا تتحقق

ثم ماذا بعد التمني والأماني والأحلام ! ساعات تضيع ، وعمر ينقضي ، ربما تحقق ما تمناه العبد وربما لا يتحقق ، ويظل العبد غارقا في أمانيه حتى يهجم عليه الموت !!

أتدري ما تكون عندها الأمنية ! الرجوع إلى الدنيا مرة أخري ! لماذا ؟ ليدرك هذا المسكين ، ما فاته في الحياة من عمل صالح ، ومن قربة إلى الله ، وهذا حاله كما وصف ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۞ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠]

---

(١) **البخاري** : (٧٢٣٥) ، **مسلم** : (٢٦٨٢) .

(٢) **هَرْوَلَةً** : الإسراع بين العدو والمشي .

(٣) **البخاري** : (٧٤٠٥) ، **مسلم** : (٢٦٧٥) .

انظر إلى الجواب ﴿ **كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا** ﴾ فلا تنفع الأماني ولا يفيد الندم .

بل نرى من الصالحين من يتمنى الرجوع لما يري من فضل الله عليه فيتمنى أن يزيد في العمل ! ولكن لا تتحقق الأمنية .

عَنْ مَسْرُوق قَالَ : سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّه عَنْ هَذه الآيَة ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّه أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ قَالَ : أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ ، لَهَا قَنَاديلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ ، تَسْرَحُ مِنْ الْجَنَّة حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَاديلِ فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلاَعَةً ، فَقَالَ هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا قَالُوا أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنْ الْجَنَّة حَيْثُ شِئْنَا ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاَثَ مَرَّات ؛ فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا ؛ قَالُوا يَا رَبِّ : نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادنَا ، حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى ؛ فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا[1].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْد اللَّه قَالَ : لَقِيَنِي رَسُولُ اللَّه ﷺ فَقَالَ لِي : ((**يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا**)) ؛ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّه اسْتُشْهِدَ أَبِي قُتِلَ يَوْمَ أُحُد ، وَتَرَكَ عِيَالاً ، وَدَيْنًا . قَالَ : ((**أَفَلاَ أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِه أَبَاكَ**)) ؛ قَالَ : قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه قَالَ : ((**مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلاَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ؛ وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا ، فَقَالَ يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ قَالَ يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً ؛ قَالَ الرَّبُّ** ﷻ **: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لاَ يُرْجَعُونَ**)) . قَالَ : ((**وَأُنْزِلَتْ هَذه الآيَةُ : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّه أَمْوَاتًا ﴾ الآيَةَ**))[2].

---

(١) مسلم : (١٨٨٧) .

(٢) حسن : الترمذي (٣٠١٠) ، ابن ماجة (١٩٠) .

ثم ما ذا بعد !!

وهو في قبره يتمنى ! أتري ما الأمنية ! يتمنى ركعتين خفيفتين ! ولو خير بينهما وبين الدنيا وما فيها إلى قيام الساعة ، لاختار الركعتين .

عَنْ أَبِي هُـــرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قَبْرٍ دُفِنَ حَـــدِيثاً فَقَالَ : ((**رَكْعَتَانِ خَفِيفَتَانِ ، ممَّا تَحْقرون ، وتَنْفلُون ، يَزِيدُهما هَذَا فِي عَمَلِه ، أحبّ إلَيْه مِنْ بَاقِي دُنْيَاكُم**))[1].

ثم ماذا بعد ! أتدري ما هي أماني أهل النار ! أمانيهم الهلاك !

قال تعالى : ﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ** ﴾ [الزخرف : ٧٧]

فيا عبد الله كلما راودتك أمنية فاعرضها على شرع الله ؛ فإن كانت لله فزينها بالإخلاص والعمل ، وإن كانت لغير الله ؛ فأغلق عنها قلبك وعقلك ، واطرحها جانبا ، فإن الانشغال بها مهلكة عظيمة .

إياك والأماني التي هي أشبه بالأحلام ، فإنها مصيدة إبليس لك ليكدر عليك قلبك ، ويضيع عمرك ، ويعطل سيرك إلى الله . اجعل أمانيّك واقعاً وحقيقة ، حقق منها ما استطعت في الدنيا قبل أن يأتي الوقت الذي لا تحقق فيه أمنية .

قال إبراهيم التيمي : مثلت نفسي في النار أعالج أغلالها وسعيرها وآكل من سخينها ، وأشرب من زمهريرها ، فقلت : يا نفسي أي شئ تشتهين ؟ قالت : أرجع إلى الدنيا أعمل عملا أنجو به من هذا العذاب . ومثلت نفسي في الجنة مع حورها ، وألبس من سندسها وإستبرقها وحريرها ،

---

(١) **حسن** : ابن المبارك (الزهد ٣١) .

فقلت : يا نفسي أي شئ تشتهين ؟ قالت : أرجع إلى الدنيا فأعمل عملا أزداد من هذا الثواب ، فقلت : أنت في الدنيا وفي الأمنية[١].

أخي الحبيب : رغم تكاثر الذنوب والاستغراق في الأماني ، إلا أن باب التوبة مفتوح ، فعجل قبل حلول الأجل وانقطاع العمل ، أو الوقت الذي لا تنفع فيه الأمنية ولا يطلبه الأمل .

عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**))[٢].

أماني تتحقق

فإذا عجز الإنسان عن العمل مع أخذ أسبابه ، ثم تمنى لو قدر على العمل أن يأتيه ؛ أعطاه الله أجره ؛ استمع لهذا الحديث : عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي غَزَاةٍ فَقَالَ : ((**إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلْفَنَا مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلاَ وَادِيًا إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ حَبَسَهُمْ الْعُذْرُ**))[٣].

وكذلك ما مر بنا من حديث أبي كبشة عن النبي ﷺ : ((**وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا ، وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ : لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ**)).

فهذه الأماني إن لم تتحقق في الدنيا ، يأخذ صاحبها الأجر في الآخرة إن صدقت نيته .

---

(١) أبو نعيم (الحلية ٤/٢١١) .
(٢) مسلم : (٢٧٥٩) .
(٣) البخاري : (٢٨٣٩) .

هل تعلم يا عبد الله أن النعيم في الجنة بالأمنية قال تعالى : ﴿ **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [الزخرف : ٧١]

فما تمنى من طعام وشراب ووَصْلٍ ؛ فالكل مجاب .

وهذا عبد نجا من النار بعد أن لاقى الأهوال ، حتى تخيل أنه ما نجا غيره ، وكانت هذه غاية أمنيته ، أن ينجو من النار ، ولكن انظر إلى أمانيه بعد أن أنجاه الله من النار : عَنْ ابْنِ مَسْعُود أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ : « **آخرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فَهْوَ يَمْشي مَرَّةً وَيَكْبُو مَرَّةً ، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ : تَبَارَكَ الَّذي نَجَّاني منْك ، لَقَدْ أَعْطَاني اللَّهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا منْ الأَوَّلينَ وَالآخرِينَ . فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ أَدْنني منْ هَذه الشَّجَرَة فَلأَسْتَظلَّ بظلِّهَا وَأَشْرَبَ منْ مَائهَا ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ يَا ابْنَ آدَمَ : لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَني غَيْرَهَا ، فَيَقُولُ : لاَ يَا رَبِّ وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا ، وَرَبُّهُ يَعْذرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْه ، فَيُدْنيه منْهَا فَيَسْتَظلُّ بظلِّهَا وَيَشْرَبُ منْ مَائهَا ، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مَنْ الأُولَى . فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ أَدْنني منْ هَذه لأَشْرَبَ منْ مَائهَا وَأَسْتَظلَّ بظلِّهَا لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا ، فَيَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ : أَلَمْ تُعَاهدْني أَنْ لاَ تَسْأَلَني غَيْرَهَا . فَيَقُولُ : لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ منْهَا تَسْأَلُني غَيْرَهَا ، فَيُعَاهدُهُ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا ، وَرَبُّهُ يَعْذرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْه ، فَيُدْنيه منْهَا فَيَسْتَظلُّ بظلِّهَا ، وَيَشْرَبُ منْ مَائهَا ، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عنْدَ بَابِ الْجَنَّة هيَ أَحْسَنُ منْ الأُولَيَيْن ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ أَدْنني منْ هَذه لأَسْتَظلَّ بظلِّهَا وَأَشْرَبَ منْ مَائهَا ، لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا ، فَيَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ : أَلَمْ تُعَاهدْني أَنْ لاَ تَسْأَلَني غَيْرَهَا . قَالَ : بَلَى يَا رَبِّ هَذه لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا . وَرَبُّهُ يَعْذرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا ، فَيُدْنيه منْهَا فَإِذَا أَدْنَاهُ منْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ**

أَهْلِ الْجَنَّة فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ أَدْخِلْنِيهَا ؛ فَيَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ : مَا يَصْرِينِي[١] **مِنْكَ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا ، قَالَ يَا رَبِّ : أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ**)) ، فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُود ، فَقَالَ : أَلاَ تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ فَقَالُوا : مِمَّ تَضْحَكُ ، قَالَ : هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللَّه ﷺ . فَقَالُوا : مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّه ، قَالَ : ((**مِنْ ضَحْك رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، فَيَقُولُ : إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ**))[٢].

يقول ابن القيم في ((نونيته))

وطَعامُهُـــم مَا تَشْتَهيه نُفوسُهُم ... ولُحُـــومُ طَـــيرٍ نَاعمٍ وَسمَان
وفَوَاكـــهٌ شَتَّى بحسْب مُنَاهُـــم ... يا شَبْعَة كَمُلت لذي الإيمَـــان
لَحْـــمٌ وخَمْرٌ والنِّسا وفَوَاكـــهٌ ... والطِّيبُ مَعْ رَوْحٍ ومَعْ رَيْحَانَ
وصِحَافُهُم ذَهَبٌ تَطُوفُ عَلَيْهِمُ ... بأَكُفِ خُـــدَّامٍ مِنَ الوِلْـــدَانَ

هذا عمر بن عبد العزيز نال أعلى مكانة في الدنيا ! - الخلافة - ورغم ذلك اتجه إلى الآخرة فتمناها ، وكابد المشاق لرضا الله سبحانه وتعالى .

فقيل له : يا أمير المؤمنين عزفت عن الدنيا إلى الآخرة فقال : إن نفسي تواقة ، وإنها لم تعط من الدنيا شيئا إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه ؛ فلما أعطيت ما لا أفضل منه في الدنيا ، تاقت إلى ما هو أفضل منه - يعني : الجنة[٣].

فالدنيا دار عمل وجد ؛ ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، فسارع وسابق وإياك والأماني التي تعطلك عن سيرك إلى الله .

---

(١) الصر : الحبس والمنع .
(٢) مسلم : (١٨٧) .
(٣) سير أعلام النبلاء (١٣٤/٥) .

تمـــني الموت !

لا ينبغي للعبد أن يتمنى الموت مهما بلغ به الضر ؛ فربما لو صبر على ضره نال أعلى الدرجات ، ولعله فيما بقي من عمره أن يرزق العمل الصالح أو يقلع عن معاصيه وذنوبه .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ : ((**لاَ يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ ؛ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ**))(١).

فإن العبد في فسحة مادام في الدنيا ؛ فينبغي أن يؤمل العفو ، والفضل من الله ؛ وأن يقدم الرجاء ، وأن يطمع في رحمة **الله** ﷻ .

ويجب على العبد أن يَجدَّ في الطاعات ، ويُلقي بقلْبه على أعتاب الذل بين يدي ربه تبارك وتعالى ، قبل أن يأتي الوقت الذي يتمنى فيه العبد ؛ أن يتقرب بطاعة فلا يستطيع ، أو أن يقلع عن معصية فلا يستطيع ، بل يتمنى الموت فلا يجده .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : ((**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الْقَبْرِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْه ، وَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ وَلَيْسَ بِه الدِّينُ إِلاَّ الْبَلاَءُ**))(٢).

ولقد اختلف العلماء في تمني الموت . فأجازه جماعة عند حلول الفتن ، وعدم القدرة على إتيان الطاعة ، وتعاظم الأمر ، وازدياد الخطب ، وشدة البلاء .

واستدل البعض بتمني يوسف الموت لما أتم الله له النِّعم ، ومنَّ عليه بالملك والنُّبوة ؛ اشتاق إلى الصالحين قبله ، كما في **قوله تعالى** : ﴿ **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي**

---

(١) البخاري : (٧٢٣٥) .

(٢) مسلم : (١٥٧) .

مِنْ الْمُلْك وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيث فَاطِرَ السَّمَوَات وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١]

وكذلك ما وقع لسحرة فرعون ؛ حينما أرادهم فرعون عن دينهم ؛ وهددهم بالقتل **كما قال تعالى عنهم** : **﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾** [الأعراف : ١٢٦]

وكذلك تمنت مريم الموت ؛ حينما جاءها المخاض إلى جذع النخلة ، ولم تكن ذات زوج فخشيت أن تقذف بالفاحشة . **قال تعالى** : **﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي متُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنْسِيّاً ﴾** [مريم : ٢٣]

وفي حديث اختصام الملأ الأعلى عن ابن عباس : ((**وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُون**))[1].

وقد تمناه جماعة من العلماء منهم :

أحمد بن حنبل : قال : أريد أن أكون في شِعْب بمكة حتى لا أُعرف ، قد بُليتُ بالشهرة ، إني أطلب الموت صباحا ومساءً[2].

البخاري : وقال ابن عدي : سمعت عبد القدوس بن عبد الجبار السمرقندي يقول : جاء محمد – ابن إسماعيل البخاري – إلى أقربائه بخَرْتَنْك ، فسمعتُه يدعو ليلةً إذ فرغ من ورده ، اللهمَّ إنه قد ضاقت عليَّ الأرض بما رَحُبَت ، فاقبِضْني إليك . فما تم الشهر حتى مات[3].

---

(١) حسن : الترمذي (٣٢٣٣) ، أحمد (٣٤٧٤) .

(٢) الذهبي (السير ٢١٦/١١) .

(٣) الذهبي (السير ٤٤٣/١٢) .

ثالثا : المخالطة

لقد استدار الزمان ؛ وإذا بالصالحين ذهبوا الأول فالأول ، فَقَلَّ للزمان خيره ، وتكدر صفوه ، وتعسَّر برُّه .

عَنْ مِرْدَاسٍ الأَسْلَمِيِّ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ ، وَيَبْقَى حُفَالَةٌ**[1] **كَحُفَالَةِ الشَّعِيرِ ، أَوْ التَّمْرِ لاَ يُبَالِيهِمْ اللَّهُ بَالَةً**))[2].

فكيف بمن هذا حاله ! وأنت ترى العهود مَرِجت والأمانات خفت ، والدين قد رق ، فأصبح الحليم سفيهاً ، والسفيه حليماً ، وأصبح المهزار أنيساً ، والتقيُّ عييّاً .

استمع لهذا الحديث

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((**كَيْفَ بِكُمْ وَبِزَمَانٍ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ يُغَرْبَلُ النَّاسُ فِيهِ غَرْبَلَةً ؛ تَبْقَى حُثَالَةٌ مِنْ النَّاسِ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَأَمَانَاتُهُمْ ، وَاخْتَلَفُوا فَكَانُوا هَكَذَا**)) وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ فَقَالُوا : وَكَيْفَ بِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : ((**تَأْخُذُونَ مَا تَعْرِفُونَ ، وَتَذَرُونَ مَا تُنْكِرُونَ ، وَتُقْبِلُونَ عَلَى أَمْرِ خَاصَّتِكُمْ ، وَتَذَرُونَ أَمْرَ عَامَّتِكُمْ**))[3].

مخالطة من حاد عن طريق الله

إحذر مخالطةَ عُبَّاد النفس ، ومن تلبس بفسق ، أو اتَّبع هواه ؛ فإن مجاورة هؤلاء جَرَب لازم ، لا يبتعد ولا يسكن عن صاحبه ، فقلبه حاد عن طريق مولاه ، وجوارحه كَلَّت في رضى نفسه وهواه ، إن تكلم تكلم بمعصية ، وإن

---

(١) **حُفَالَةٌ** : الرديء من كل شيء .

(٢) **البخاري** : (٧٠٢٣) .

(٣) **صحيح** : أبو داود (٤٣٤٢) ، ابن ماجة (٣٩٥٧) ، أحمد (٧٠٢٣) ، الحاكم (المستدرك ٢/ ١٧٢) ، البيهقي (السنن الكبرى ٦/٩٥) .

تحرك تحرك في معصية ، فهذا الصنف من الناس لا حياة فيه ، فهو لا يعرف ربه ، ولا يعبده بأمره ونهيه ، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه ، أرضى ربه أم أسخطه . فهو متعبد لغير الله – حباً ، وخوفاً ، ورجاء ، ورضاً ، وسخطاً ، وتعظيما ، وذلاً ، إن أحب – أحب لهواه ، وإن أبغض أبغض لهواه ، وإن أعطى أعطى لهواه ، وإن منع منع لهواه ، فهواه آ ثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه ، فالهوى إمامه والشهوة قائده ، والجهل سائقه ، والغفلة مركبه ، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور ، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور ، يُنَادى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد ، ولا يستجيب للناصح ، ويتبع كل شيطان مريد ، الدنيا تسخطه وترضيه والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه ، فهو في الدنيا كما قيل في ليلى :

عَدُوٌ لِمَنْ عَادَتْ وَسِلْمٌ لأهْلِهَا وَمَنْ قَرَّبَتْ لَيْلَى أَحَبَّ وَأَقْـــرَبا

فمخالطة صاحب هذا القلب سقم ، ومعاشرته سُم ، ومجالسته هلاك .

قال تعالى : ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ [الكهف : ٢٨]

عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً** »[١].

---

(١) **البخاري** : (٥٥٣٤) ، **مسلم** : (٢٦٢٨) .

فالحذر كل الحذر من مخالطة هؤلاء ، وإياك وحجة إبليس ! أن تخالطهم من أجل الدعوة ، وتوصيل الحق إليهم ! أو مصلحة تغلفها بصبغة شرعية ، فإن هذا ليس من هدي السلف ﷺ ، فإن الأول دعوا إلى الله ﷻ مع وقوفهم على جانب واحد ، لا يحيدون عنه قيد أنملة ، الكتاب والسنة ! دون تقديم أي تنازل ، وإن كان في الأمر عسر وصعوبة ، إلا أنهم سَحَبُوا الناس إليهم ، وأوقفوهم معهم في معسكرهم على الكتاب والسنة ، بخلاف من كَثُر من دعاة هذا الزمان ، يدخلون إلى معسكر العصاة ، ويهتدون بهديهم ، ويتزينون بزيهم ، ويتلبسون بخصالهم وفعالهم ، بحجة دعوتهم إليهم ! فحتى لو نجحت هذه الدعوة فإن نقطة الالتقاء بعيدة ، وخاصة إذا كان الداعي فقير العلم ، حديث العهد بالالتزام ! وذلك لسهولة رجوعه إلى ما كان عليه من قبل ، بخلاف من توطَّن المعصية ، فإن انتقاله عنها عسير ، ومفارقته لما ألف أصعب ، فيظل المنتقل إليه ، الطالب دعوته ، على الحالة التي هو عليها من المخالطة والألف لما هو عليه ، حتى يكونا سواءً في التفريط والمعصية ، إلا من رحم الله .

وربما يقول قائل لا غنى لي عن الناس ، ولا غنى للناس عني ، وربما يكون هذا صحيحاً إذا عرف العبد الداء و الدواء ، وفرق بين المنحة من المحنة ، والعطية من الرزية ، والحمل من الذئب ، والظباء من الثعالب .

الداء والدواء

ومخالطة الناس قد تكون داءً ، وقد تكون دواءً ، ويجب على العبد أن يفرق بين الداء والدواء .

فالدواء كمخالطة الناس في الجمع والجماعات ، ومجالس العلم ومالا بد منه ، والمخالطة التي هي داء مما لا يعود على العبد بمنفعةٍ إلا التمتع بضياع الوقت ،

وقضائه بما لا يعود على العبد من نفع . والمخالطة التي هي كالدواء لا يؤخذ منها إلا بقدر محدود وعند الضرورة . فإنه إن زاد عن حده تحول إلى داء .

فإن كثرة المخالطة بلية عظيمة ، ورزية جسيمة ، فإن العبد يعيش في ستر الله ؛ فكم من ذنوب هي لك أخفاها ، وكم من عيوب لك عن العباد قد غطاها ، فإذا ما كثرت مخالطتك ، وسهل الانبساط بينك وبين العباد ، ظهرت هذه الذنوب وعُلمت هذه العيوب ، فإن جاراك الناس ، واستأنسوا بك ؛ فعند الفتن والشدائد لا يظهرون إلا العيب ، فإذا هم قد ستروا النعمة ، وأظهروا النقمة .

فالأخذ بالاحتياط وطلب السلامة أولى ، وكلما قلت المخالطة قلت عنك مواد الشِّكَاية ، فلن تُسْتبطأ في حقٍ ، كعيادة مريضٍ ، أو شهود جنازةٍ ، أو حضور عُرسٍ ، أو وليمةٍ ونحوها .

فالناس إذا فقدوك عذروك ، وإذا وجدوك عَذَلُوك واستقصروك ؛ وقد يكون لك بعض الأعذار لا يقبلها منك هؤلاء .

فكلما ابتعدت عن المخالطة كنت في أمانٍ من مساويهم ، وعن محاوراقم ، إلا ما يكفي فضل مؤنة ضرورية لهم أو لك .

فربما رفعوا لك قولاً ، أو فعلاً ، حال غفلة ، أو عدم انتباه فشنَّعوا عليك ؛ أو سمعوا منك كلاماً تأوَّلوه عليك لم تدركه عقولهم .

هذا إن جاريتهم ! فكيف لو كنت قوّاماً ، وقّافاً بالحق ! فإذا هم قد بغضوك ، وهجروك ، وكنت مضغة على ألسنتهم .

فكم من قلوب قد امتلأت من دخان أنفاس بني آدم حتى اسودت ، وأوجب لها تشتتاً وتفرقاً وهمّاً وغماً، وكم من مجالسٍ أضاعت مصلحةً وأوقعت مفسدةً ، وكم جلبت الخُلطة من نقمة ، ودفعت من نعمة ،

وأنزلت من محنة ، وعطلت من مِنْحةٍ ، وأوصلت من رزية وأوقعت في بلية ! وهل آفة الناس إلا الناس .

لقد أوشك أبو طالب أن ينطق بالإسلام لولا جلساء السوء .

عَنْ سَعِيد بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَبِي طَالِبٍ : « **يَا عَمِّ قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ** » فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ : يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ : هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « **أَمَا وَاللَّهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ** » فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ** ﴾ الآيَةَ[1].

وقد أحسن من قال :

يا مَنْ يُريدُ بزَعْمه الإخْمَالا	إنْ كان حَقّاً فاسْتَعدَّ خصالا
تَرْكُ التَّذاكُرِ والمَجَالسِ كُلِّها	واجْعَلْ خُروجَكَ للصلاة خَيَالا
بَلْ كُنْ بها حَيّاً كَأَنَّكَ مَيِّتٌ	لا يَرْتَجي منْهُ القَريبُ وصَالا
وأْنَسْ برَبِّكَ واعْلَمَنَّ بأنَّهُ	عَوْنُ المُريد يُسَدِّدُ الأَحْلالا
يُعْطي وَيُثْني بالْعَطَاء تَفَضُّلاً	بَعْدَ الثَّواب وَيَبْسُطُ الآمَالا
مَنْ ذَا يُريدُ مَعَ الوَدود مُؤانسا	مَنْ ذَا يُريدُ لغَيْره أشْغالا
مَنْ ذَا يَلَذُّ بغَيْرِ ذكْرِ مَليكه	مَنْ ذَا يُريدُ لغَيْره أعْمَالا

(١) البخاري : (١٣٦٠) ، مسلم : (٢٤) الآية : ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ [سورة التوبة ٩/١١٣]

لا تَقْنَعَنَّ مـــنَ الحياة بغَيْره وابذُل قوَاك وقَطِّع الأَوْصـــالا
فَلَئِنْ بَلَغْتَ لأَنْتَ أَكْرَمُ مَنْ بها وَلَئِنْ هَلَكْتَ فَما ظُلِمْتَ خلاَلا
مَنْ ذَاقَ كَأْسَ الخَوْف ضَاقَ بذَرْعه حتى يَنَـــالَ مُرَادَه إنْ نَالا
حَاشَا مُؤَمِّل سَيِّدي منْ خَيْبَة جَـــلَّ الجَـــوادُ بفعْله وَتَعـــالى

حظك من المخالطة

وهذا لا يمنع من أخذ حظ النفس من مجالسة الصالحين ، ومن تستدعي الضرورة من مجالستهم ،كرحم يراد صلته ، أو منفعة لا تتم إلا بالمخالطة ، مع التحرز من ضياع الوقت وذهابه سدى .

وقد أهدى ابن الجوزي رحمه الله نصيحة لمن هذا حاله فقال رحمه الله[1]:

أعوذ بالله من صُحْبَة البطّالين ، لقد رأيت خلقا كثيراً يجرون معي فيما اعتاده الناس من كثرة الزيارة ، ويسمون ذلك التردد خدمة ، ويطلبون الجلوس ويجرون فيه أحاديث الناس ومالا يعني ، وما يتخلله من غيبة .

وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس ، وربما طلبه المزور ، وتشوق إليه ، واستوحش من الوحدة ؛ وخصوصا في أيام التهاني والأعياد ، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض ولا يقتصرون على الهناء والسلام ؛ بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان ، فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء ، والواجب انتهاؤه بفعل الخير ؛ كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين ! إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف ، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان ، فصرت أدافع اللقاء جهدي ؛ فإذا غلب قصَّرت في الكلام لأتعجل الفراق ، ثم أعددت أعمالا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغا .

---

(١) (صيد الخاطر ٢٧٣) .

فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكَاغَد[1] وبري الأقلام ، وحزم الدفاتر ، فإن هذه الأشياء لا بد منها ، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب ، فأرصدها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي ، نسأل الله عز وجل أن يعرفنا شرف أوقات العمر ، وأن يوفقنا لاغتنامه ، ولقد شاهدت خلقا كثيرا لا يعرفون معنى الحياة ، فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرة ماله فهو يقعد في السوق أكثر النهار ينظر إلى الناس ، وكم تمر به من آفة ومنكر ، ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج ، ومنهم من يقطع الزمان بكثرة الحديث عن السلاطين ، والغلاء والرُخْصِ إلى غير ذلك .

فعلمت أن الله تعالى لم يُطْلِعْ على شَرَف العُمر ومعرفة أدوار العافية إلا من وفقه وألهمه اغتنام ذلك ﴿ **وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ [فصلت : ٣٥] أهـ

قال الإمام الماوردي رحمه الله[2]

ومن الناس من يرى متاركة الإخوان إذا نفروا أصلح ، واطراحهم إذا فسدوا أولى ، كأعضاء الجسد إذا فسدت كان قطعها أسلم . فإن شح بها سرت إلى نفسه ، وكالثوب إذا خلق كان اطراحه بالجديد له أجمل .

وقد قال بعض الحكماء : رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس ، وزهدك فيمن يرغب فيك صغر همة .

وقد قال بزرجمهر : من تغير عليك في مودته فدعه حيث كان قبل معرفته .

وقال نصر بن أحمد الخبزارازي :

صِلْ مَنْ دَنَا وَتَنَاسَ مَنْ بَعُدا ... لا تُكْرِهَنَّ عَلَى الهـوى أَحَدا

قَدْ أَكْثَرَتْ حـواءُ إِذْ وَلَدَتْ ... فَإِذَا جَفَـا وَلَـدٌ فَخُذْ وَلَدَا

---

(١) الكَاغَد : القرطاس .

(٢) أدب الدنيا والدين (ص ٣٤٦) .

فهذا مذهبٌ في من قل وفاؤه ، وضعف إخاؤه ، وساءت طريقته ، وضاقت خلائقه ، و لم يكن فيه فضل الاحتمال ، ولا صبر على الإدلال ، فقابَل على الجفوة ، وعاقَب على الهفوة ، وطرَح سالف الحقوق ، وقابَل العقوق بالعقوق ، فلا بالفضل أخذ ، ولا إلى العفو أخلد . وقد علم أن نفسه قد تطغى عليه فترديه ، وأن جسمه قد يسقم عليه فيؤلمه ويؤذيه ، وهما أخصّ به وأحنى عليه من صديق قد تميز بذاته ، وانفصل بأدواته فيريد من غيره لنفسه ! هذا عين المحال ومحض الجهل ، مع أن من لم يحتمل بقي فرداً وانقلب الصديق فصار عدواً . وعداوة من كان صديقاً أعظم من عداوة من لم يزل عدواً .

قال الحميدي المحدِّث :

لِقَاءُ النَّاسِ لَيْسَ يُفِيدُ شَيْئاً ... سوى الإِكْثَارِ مِنْ قِيلٍ وَقَالِ
فَأَقْلِلْ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ إِلاَّ ... لِكَسْبِ الْعِلْمِ أَوْ إِصْلاَحِ حَالِ

ابحث عن هذا !

قال بعض السلف : إن أردت صديقا فابحث فيه عن هذه الصفات: أن يكون كثير الحياء ، قليل الأذى ، كثير الصلاح ، صدوق اللسان ، قليل الكلام ،كثير العمل ، قليل الزلل ، قليل الفضول ، برا وصولا ، وقورا ، صبورا ، شكورا ، رضيا حليما ، رفيقا عفيفا شفيقا ، لا لعانا ، ولا نماما ، ولا مغتابا ، ولا عجولا ، ولا حقودا ، ولا بخيلا ، ولا حسودا ، بشاشا ، هشاشا ، يحب في الله ، ويبغض في الله ، ويرضى في الله ، ويغضب في الله .

ترك المخالطة إلا من ضرورة

وأعني هنا الكثرة من غير ما سبب أو علة توجب منفعة تعود على العبد بخيري الدنيا والآخرة ، إذ لابد من مخالطة الناس كما ذكرنا في الجمع

والجماعات ، وحلق العلم ومجالس القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وطلب المعاش ، وغيرها من الضروريات .

ولو رصد الإنسان عمره في معرفة **الله** ﷻ، والعلم بأوامره ونواهيه وألا يضيع لحظة في غير طاعة ، لنال أعلى الدرجات في الدنيا والآخرة **قال تعالى** :
﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾
[السجدة : ٢٤]

فلن ينال العبدُ مكانة في الدنيا أو الآخرة إلا بتفريغ الوقت ، وحبس النفس ، وعدم ضياع الوقت مع هذا وذاك .

استمع لهذه النصيحة من ابن الجوزي لولده يحثه على أن يتبوّأ مكانة عالية ، ودرجة رفيعة ، كما وصل إليها رحمه الله . يقول رحمه الله :[١]

وإني لأذكر لك بعض أحوالي لعلك تنظر إلى اجتهادي وتسأل الْمُوَفِّق لي ، فإن أكثر الإنعامِ عليَّ لم يكن بكسبي ، وإنما هو من تدبير اللطيف بي ، فإني أذكر نفسي ولي همة عالية وأنا في المكتب ابن ست سنين ، وأنا قرين الصبيان الكبار ، قد رزقت عقلا وافراً في الصغر يزيد على عقل الشيوخ ، فما أذكر أني لعبت في طريقٍ مع الصبيان قط ، ولا ضحكت ضحكاً خارجا .

حتى أني كنتُ ولي سبع سنين أو نحوها ؛ أحضر رَحْبة الجامع ، فلا أتخير حلقة مشعبذ ، بل أطلب المحدث فيتحدث بالسير ، فأحفظ جميع ما أسمعه ؛ وأذهب إلى البيت فأكتبه ، ولقد وُفِّق لي شيخنا أبو الفضل ابن ناصر رحمه الله ، وكان يحملني إلى الشيوخ فأسمعني المسند وغيره من الكتب الكبار ؛ وأنا

---

(١) لفتة الكبد إلى نصيحة الولد (٣٥) .

لا أعلم ما يراد مني . وضبط لي مسموعاتي إلى أن بَلَغْت ، فناولني ثبتها ولازمته إلى أن توفي رحمه الله ، فنلت به معرفة الحديث والنقل .

ولقد كان الصبيان يترلون إلى دجلة ويتفرجون على الجسر ، وأنا في زمن الصغر آخذ جزءاً وأقعد حجزة[1] من الناس إلى جانب الرقة فأتشاغل بالعلم .

ثم أُلهمت الزهد فسردت الصوم ، وتشاغلت بالتقلل من الطعام ، وألزمت نفسي الصبر فاستمرت ولازمت ، وعالجت السهر ، ولم أقنع بفن من العلوم ، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث ، وأتّبع الزهاد ، ثم قرأت اللغة ، ولم أترك أحدا ممن يروي ويعظ ، ولا غريبا يقدم إلا وأحضره ، وأتخير الفضائل ، وكنت إذا عُرِض لي أمران أُقَدِّم في أغلب الأحوال حق الحق .

فأحسن تدبيري وتربيتي ، وأجراني على ما هو الأصلح لي ، ودفع عني الأعداء والحسّاد ومن يكيدني ، وهيأ لي أسباب العلم ، وبَعَثَ إليَّ الكُتب من حيث لا أحتسب .

ورزقني الفهم ، وسرعة الحفظ ، والخط وجودة التصنيف ، ولم يعوزني شيئا من الدنيا ، بل ساق إليّ من الرزق مقدار الكفاية وأزيد ، ووضع لي من القبول في قلوب الخلق فوق الحد ، وأوقع كلامي في نفوسهم فلا يرتابون في صحته ، وقد أسلم على يدي نحو من مائتين من أهل الذمة . ولقد تاب في مجلسي أكثر من مائة ألف ، وقد قطعت أكثر من عشرين ألف سالف مما يتعاناه الجهال .

ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث ، فينقطع نفسي من العدو لئلا أُسبق ، وكنت أصبح وليس لي مأكل ، وأمسي وليس لي مأكل ، ما

---

(١) **حجزة** : فصلت بيني وبينهم .

أذلني الله لمخلوقٍ قط ، ولكنه ساق رزقي لصيانة عرضي . ولو شرحت أحوالي لطال الشرح .أ.هـ .

جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال : إن الناس قد وقعوا فيما وقعوا فيه ، فحدثت نفسي أن لا أخالطهم ، فما ترى ؟

قال : لا تفعل لا بد للناس منك ، ولا بد لك منهم ، فلهم إليك حوائج ، ولك إليهم حوائج ، ولكن كن فيهم أصمَّ سميعا ، أعمى بصيرا ، سكوتاً نطوقا[1].

المخالطة تكشف عيوبك

أما المخالطة من غير ما سبب يوجب منفعة ؛ فالانشغال بالنفس والإقبال على الآخرة أولى من الانشغال بدخان الناس وأنفاسهم ؛ فإنه يندر في الناس المشاكلة والمصاحبة كما صح عن النبي ﷺ عَنْ عَبْد اللَّه بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ : ((**إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ الْمِائَةِ ، لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً**))[2].

فهذا التشبيه بالإبل لأن الرجل لا يجد فيها راحلة تصلح للركوب ، لأن الذي يصلح للركوب ينبغي أن يكون وطيئاً ؛ سهل الانقياد ، وكذلك لا تجد في مائة من الناس من يصلح للرفقة والصحبة ، بأن يكون متعاونا لين الجانب .

هذا والإنسان لا يسلم من لحظة إغلاق مهما كان دينه أو ورعه ، ربما خسر بها من خالط إلى الأبد إن لم يكن عنده عَوْد ورجوع .

وهذا الأمر لا يسلم منه أحد ،حتى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فكيف بمن دونهما . استمع لهذه الواقعة :

---

(١) ابن المبارك (الزهد ٩٥٥) .

(٢) **البخاري**: (٦٤٩٨) ، **مسلم**: (٢٥٤٧) .

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ**))[(١)] فَسَلَّمَ ، وَقَالَ : إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ نَدِمْتُ فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ فَقَالَ : ((**يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ**)) ثَلاثًا ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ فَسَأَلَ : أَثَمَّ أَبُو بَكْرٍ فَقَالُوا : لاَ فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَمَعَّرُ حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ ؛ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ – مَرَّتَيْنِ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي**)) – مَرَّتَيْنِ . فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا[(٢)].

هذا بين الصِّدِّيقين ! فكيف لو ابتلي العبد بجاهل ، أو أحمق ، أو ملول متثاقل ، فإن مخالطة هؤلاء مضيعة للعمر إهدار للوقت ، سبب لركوب الآثام ، فالعزلة خير من هؤلاء .

والسبب الذي يوجب الاعتزال عن العالم كافة إلا من ضرورة ، هو وجود دفن الخير ونشر الشر ، يدفنون الحسنة ، ويظهرون السيئة ، فإن كان المرء عالما بدَّعوه ، وإن كان جاهلا عَيَّروه، وإن كان فوقهم حسدوه ، وإن كان دونهم حَقَروه ، وإن نطق قالوا مِهْذار ، وإن سكت قالوا عَيِيٌّ ، وإن قَدَر قالوا مُقتِّر، وإن سَمَح قالوا مُبَذِّر، فالنادم في العواقب المحطوط عن المراتب ، من اغتر بقوم هذا نعْتُهم ، وغَرَّه ناسٌ هذه صِفتُهم .

---

(١) **غَامَرَ** : خاصم .

(٢) **البخاري** :(٣٦٦١) .

عن عمر بن الخطاب قال : خذوا بحظكم من العزلة[١].

وقال أيضا : العزلة راحة من جليس السوء[٢].

وقال طلحة بن عبيد : إن أقل شيء يعيب الرجل أن يجلس في داره[٣].

وقال أبو الدرداء : نعم صومعة الرجل بيته ، يكف سمعه ، وبصره ، ودينه ، وعرضه . وإياكم والجلوس في الأسواق فإنها تلهي وتلغي[٤].

وهذا عروة بن الزبير ، اعتزل المسجد النبوي لما رأى قلبه تكدر من الناس ، **قال هشام بن عروة** : لما بنى عروة قصره بالعقيق لزمه ، قيل له : مالك لزمت هذا القصر وتركت مسجد رسول الله ﷺ ؟ فقال : رأيت مساجدكم لاهية ، وأسواقكم لاغية ، والفاحشة في فجاجكم عالية ، وكان فيما هنالك عما أنتم فيه عافية[٥].

حفص بن حميد صاحب ابن المبارك قال : صحبت الناس خمسين سنة ، فلم أجد أحدا ستر لي عورة ، ولا وصلني إذا قطعته ، ولا أمنته إذا غضب . فالاشتغال بهؤلاء حمق كثير ، كلما أصبحتَ تقول : أتخذ اليوم صديقا ، ثم تنظر ما يرضيه عنك : أي هدية ؟ أي تسليم ؟ أي دعوة ؟ فأنت أبدا مشغول ![٦].

مكحول قال : إن كان في مخالطة الناس خير فالعزلة أسلم[٧].

---

(١) ابن أبي عاصم (الزهد ٤٨) .

(٢) الخطابي (العزلة ١٧) .

(٣) الخطابي (العزلة ١٨) .

(٤) الخطابي (العزلة ١٨) .

(٥) الخطابي (العزلة ٢٢) .

(٦) ابن حبان (روضة العقلاء ٨٣) ، ابن أبي الدنيا (مداراة الناس ١٣٠) .

(٧) البيهقي (الزهد الكبير ١٢٤) .

طاووس قال :كفى بالله محباً ، وبالقرآن مؤنساً ، وبالموت واعظاً . اتخذ الله صاحباً وذر الناس جانباً [١].

وقال داود بن شابور : كان طاووس قد جلس في بيته فقلنا له في ذلك فقال فساد الناس وحيف الأئمة[٢].

وهذا سفيان الثوري : قال سعيد بن صدقة بن المهلهل : اليوم الذي كنت أرى فيه سفيان الثوري كنت قرير العين ، قال : فأبطأت عنه أياماً ثم أتيته ، فقال لي : يا أبا مهلهل ما أبطأ بك ! ثم أخذ بيدي فأخرجني إلى الجبّان فاعتزلنا ناحية عن طريق الناس ، فبكى ثم قال : يا أبا مهلهل قد كنت قبل اليوم أكره الموت فقلبي اليوم يتمنى الموت ، وإن لم ينطق به لساني ؛ قال قلت : و لم ذاك ؟ قال : لتغير الناس وفسادهم ثم قال لي : إن استطعت أن لا تخالط زمانك هذا أحدا فافعل ، وليكن همك مرمة جهازك ، واحذر إتيان هؤلاء الأمراء ، وارغب إلى الله في حوائجك إليه ، وافزع إليه فيما ينوبك ، وعليك بالاستغناء ، عن جميع الناس ، وارفع حوائجك إلى من لا تعظم عنده الحوائج .

فوالله ما أعلم اليوم بالكوفة أحدا لو فزعت إليه في قرض عشرة دراهم أقرضني ثم كتمها عليّ ! يذهب ويجيء ويقول : جاءني سفيان فاستقرضني فأقرضته[٣].

وقال عطاء بن مسلم : قال لي سفيان الثوري : يا عطاء احذر الناس ، وأنا فاحذرني ! فلو خالفتُ رجلا في رُمَّانة فقال : حامضة ، وقلتُ : حُلوة

(١) الخطابي (العزلة ٢٤) .

(٢) الخطابي (العزلة ٢٢) .

(٣) الإمام أحمد (الورع ١٩٥) .

أو قال : حُلوة وقلتُ : حامضة ، لخشيت أن يشيط بدمي ![١].

قال سفيان بن عيينة : رأيت الثوري في النوم ، كأنه مائل ، فقلت له أوصني ؟ قال : أقلل من معرفة الناس[٢].

الفضيل بن عياض : قال إبراهيم البخاري : دخلت المسجد الحرام بعد المغرب ، فإذا فضيل جالس ، فجئت فجلست إليه فقال : من هذا فقلت : إبراهيم ، قال : ما جاء بك ، قلت : رأيتك وحدك فجلست إليك ، قال : تحب أن تغتاب أو تتزين أو ترائي ، قلت : لا ، قال : قم عني[٣].

مالك بن دينار كان يقول : من لم يأنس بحديث الله عن حديث المخلوقين فقد قل علمه وعمى قلبه وضيع عمره[٤].

مالك بن مغول : قال شعيب بن حرب : دخلت على مالك بن مغول ، وهو في داره بالكوفة جالس وحده فقلت : أما تستوحش في هذه الدار؟ فقال : ما كنت أظن أحدا يستوحش مع الله ﷻ[٥].

مسعر بن كدام قال : ما صحبت أحدا إلا طلب عيوبي ![٦].

الإمام أحمد : قال المروذي وذكر لأحمد أن رجلا يريد لقاءه ، فقال : أليس قد كره بعضُهم اللقاء ؛ يتزين لي وأتزين له ، وقال : لقد استرحتُ ، ما جاءني الفرج إلا منذ حلفت أن لا أحدِّث ، وليتنا نُتْرَك ، الطريق ما كان عليه بشر بن الحارث . فقلت له : إن فلانا قال : لم يزهد أبو عبد الله في

---

(١) ابن أبي الدنيا (مداراة الناس ١٢٢) .

(٢) ابن حبان (روضة العقلاء ٨١) .

(٣) ابن حبان (روضة العقلاء ٨٥) .

(٤) ابن حبان (روضة العقلاء ٨٥) .

(٥) الخطابي (العزلة ٢٣) .

(٦) ابن أبي الدنيا (مداراة الناس ١٣٤) .

الدراهم وحدها ، قال : زهد في الناس . فقال : ومن أنا حتى ازهد في الناس ؟ الناسُ يريدون أن يزهدوا فيَّ[١].

ابن الأثير : صاحب « جامع الأصول » و « غريب الحديث » أصابه شلل في ساقيه فأقعده عن الحركة ولزم داره ، يقول أخوه العز : جاء مغربيّ عالج أخي بدهن صنعه ، فبانت ثمرته ، وتمكّن من مد رجليه ، فقال لي : أعطه ما يرضيه واصرفه ؛ قلت : لماذا ؟ وقد ظهر النُّجح ، قال : هو كما تقول ، ولكني في راحة من ترك هؤلاء الدَّولة ، وقد سكنت نفسي إلى الانقطاع والدَّعة ، وبالأمس كنتُ أُذَلُّ بالسَّعي إليهم ، وهنا فما يجيئوني إلاّ في مشورة مُهمَّة ، ولم يبق من العُمر إلا القليل[٢].

ذكر الخطابي :[٣].

أنه كان أعرابي بالكوفة وكان له صديق ، وكان يظهر له مودة ونصيحة ، فاتخذه الأعرابي من عُدَده للشدائد إذ حزب بالأعرابي أمر ، فألمت به نازلة فأتاه ، فوجده بعيدا مما كان يظهر له ، فأنشأ يقول :

إِذَا كَانَ وُدُّ المَــرْءِ لَيْسَ بزَائد ... عَلَى مَرْحَبَاً أَوْ كَيْفَ أَنْتَ وَحَالُكَا!
ولم يَــكُ إلاَّ كَاشِرَاً أَوْ مُحْدِثَاً ... فأُف لــوُد لَيْــسَ إلا كَذَلــكَا
لسَانُكَ مَعْسُولٌ وَنَفْسُكَ بَشَّةٌ ... وَعنْدَ الثُّرَيَّاً منْ صَديقك مَالُكَــا
فَــأَنْتَ إِذَا هَمَّتْ يَمينُكَ مَرَّةً ... لتَفْعَلَ خَيْراً قَاتَلَتْهَــَا شمَالُكَــا

(١) الذهبي (السير ٢١٦/١١) .
(٢) الذهبي (السير ٤٩١/٢١) .
(٣) الخطابي (العزلة ٧٤) .

الصاحب ساحب

فالإنسان مجبول على التقليد والمتابعة ، ألا ترى إلى الطفل لا يمشي إلا بعد تعويد أبويه له على ذلك ، ولا يتكلم إلا بعد محاكاقمما حركة حركة ولفظة لفظة ، وكذلك ما رأى فيهما من آداب وأخلاق انطبعت عنده ، وكذلك المساوئ .

كذلك إن شب تأثر بالبيئة التي يعيش فيها ، فإن صحب أقران خير عدَّلوه وأصلحوه ، وإن صاحب أقران سوء أفسدوه وضيعوه .

ولا ينجو من فساد صاحب السوء إلا من رحم الله ، فإن الصاحب ساحب .استمع لهذه الآيات يقول تعالى : ﴿ **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۞ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۞ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابَاً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ۞ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ۞ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۞ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ۞ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ** ﴾ [الصافات : ٥٠ - ٥٧]

فانظر لحال هذا العبد كان له صاحب دائم الإغواء ، عظيم الفساد ، يلقي عليه سمومه وشكوكه في الله سبحانه وتعالى ، حتى كاد أن يسقط معه ويرديه لولا تثبيت الله له .

روى ابن عساكر من ((غريب المسلسل))[1] بإسناده إلى سري السقطي يقول : سمعت بشرا يعني ابن الحارث يقول : قال إبراهيم بن أدهم : وقفت على راهب في جبل لبنان ، فناديته فأشرف عليَّ ، فقلت له : عظني فأنشأ يقول :

خُذْ عَنْ النَّاسِ جَانِبَاً كَي يَعُـــدُّوكَ رَاهِبَا

---

(١) تاريخ دمشق ٣٤٥/٦) .

إنَّ دَهْـــراً أظَلَّـــنِي قَـــدْ أَرَانِي العَجَائِبَـــا
قَلِّبْ النَّاسَ كَيْـــفَ شِئْتَ تَجِدْهُمُ عَقَارِبا

قال بشر فقلت لإبراهيم : هذه موعظة الراهب ، فعظني أنت فأنشأ يقول :

تَوَحَّشْ مِنَ الإخْوان لا تَبْغِ مُؤْنِسَا وَلا تَبْغِ أَخَاً وَلا تَبْـــغِ صَاحِـــبَا
وَكُنْ سَامِرِيّ الفِعْلِ مِنْ نَسْلِ آدَمٍ وَكُنْ أَوْحَديا مَا قَدَرْتَ مُجَانِبَـــا
فَقَدْ فَسَدَ الأَخْوَانُ والحبُ والإخَا فَلَسْتَ تَرَى إلا مُذَوِّقَـــاً وَكَاذِبا
فَقُلْتُ وَلَـــوْلاَ أَنْ يُقَال مُدهْـــده وَتُنْكِرُ حَالاتِي لَقَـــدْ صِرتُ رَاهِبَا

قال سري : فقلت لبشر هذه موعظة إبراهيم لك فعظني أنت فقال : عليك بلزوم بيتك . فقلت : بلغني عن الحسن أنه قال لولا الليل وملاقاة الأخوان ، ما كنت أبالي متى مت . فأنشأ يقول :

يَا مَنْ يُسَرُّ بِرُؤيَـــة الإخْـــوَان مَهْلا أَمِنْتَ مَكَـــائِدَ الشَّيْطَان
خَلَتْ القُلُوبُ مِنَ المعاد وذكرِهِ وتَشَاغَلُوا بالحِرص فِي الخُسْرَانَ
صَارتْ مَجَالِسُ مَنْ تَرى وَحَدِيثُهُم فِي هَتْك مَسْتُور وَخُلْف قُرَا نَ

قال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد [١] : احذر قرين السوء ، كما أن العرق دساس[٢] ، فإن أدب السوء دساس[٣] ، إذ الطبيعة نقالة ، والطباع سراقة ، والناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض ، فاحذر معاشرة من كان كذلك ، فإنه العطب والدفع أسهل من الرفع .

---

(١) الحلية (عند أدب الزمالة) .
(٢) وفي ذلك حديث موضوع، انظر له :(العلل المتناهية ١٢٣/٢، ١٢٧) و (شرح الإحياء ٣٤٨/٥).
(٣) شرح الإحياء (٧٤/١) .

وعليه ، فتخير للزمالة والصداقة من يعينك على مطلبك ، ويقربك إلى ربك ويوافقك على شريف غرضك ومقصدك ، وخذ تقسيم الصديق في أدق المعايير[١] :

١- صديق منفعة .

٢- صديق لذة .

٣- صديق فضيلة .

فالأولان منقطعان بانقطاع موجبهما ، المنفعة في الأول واللذة في الثاني .

وأما الثالث فالتعويل عليه، وهو الذي باعث صداقته تبادل الاعتقاد في رسوخ الفضائل لدى كل منهما .

وصديق الفضيلة هذا « عملة صعبة » يعز الحصول عليها .

ومن نفيس كلام هشام بن عبد الملك « م سنة ١٢٥هـ » قوله[٢] : « ما بقي من لذات الدنيا شئ إلا أخ أرفع مؤونة التحفظ بيني وبينه » ، ومن لطيف ما يفيد بعضهم[٣] : « العزلة من غير عين العلم : زلة ومن غير زاي الزهد : علة » أ .هـ .

وإذا أردت أن تنظر إلى أثر الصحبة فتأمل هذا الحديث

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « **انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ الْغَارَ . فَقَالُوا : إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ . فَقَالَ رَجُلٌ**

---

١ - محاضرات إسلامية (لمحمد الخضر حسين ص ١٢٥- ١٣٦) .

٢ - طبقات النسابين (ص ٣١) .

٣ - العزلة للخطابي .

منهُمْ : اللَّهُمَّ كَانَ لي أَبَوَان شَيْخَان كَبيرَان وَكُنْتُ لاَ أَغْبقُ قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلاَ مَالاً فَنَأَى بي في طَلَب شَيْء يَوْمًا فَلَمْ أُرحْ عَلَيْهمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائمَيْن وَكَرهْتُ أَنْ أَغْبقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَوْ مَالاً ؛ فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظرُ اسْتيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ ؛ فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا . اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلكَ ابْتغَاءَ وَجْهكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فيه منْ هَذه الصَّخْرَة ؛ فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لاَ يَسْتَطيعُونَ الْخُرُوجَ » . قَالَ النَّبيُّ ﷺ : « وَقَالَ الآخَرُ : اللَّهُمَّ كَانَتْ لي بنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاس إلَيَّ ؛ فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسهَا فَامْتَنَعَتْ منِّي ؛ حَتَّى أَلَمَّتْ بهَا سَنَةٌ منْ السِّنينَ ؛ فَجَاءَتْني فَأَعْطَيْتُهَا عشْرينَ وَمائَةَ دينَار عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْني وَبَيْنَ نَفْسهَا ، فَفَعَلَتْ . حَتَّى إذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ : لاَ أُحلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إلاَّ بحَقِّه ؛ فَتَحَرَّجْتُ منْ الْوُقُوع عَلَيْهَا فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهيَ أَحَبُّ النَّاس إلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذي أَعْطَيْتُهَا ؛ اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتغَاءَ وَجْهكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فيه ؛ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطيعُونَ الْخُرُوجَ منْهَا » . قَالَ النَّبيُّ ﷺ : « وَقَالَ الثَّالثُ : اللَّهُمَّ إنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحد ؛ تَرَكَ الَّذي لَهُ وَذَهَبَ ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ منْهُ الأَمْوَالُ ، فَجَاءَني بَعْدَ حينٍ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّه : أَدِّ إلَيَّ أَجْري فَقُلْتُ لَهُ : كُلُّ مَا تَرَى منْ أَجْركَ منْ الإبل وَالْبَقَر وَالْغَنَم وَالرَّقيق فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّه : لاَ تَسْتَهْزئُ بي فَقُلْتُ : إنِّي لاَ أَسْتَهْزئُ بكَ ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ منْهُ شَيْئًا اللَّهُمَّ فَإنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلكَ ابْتغَاءَ وَجْهكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فيه ؛ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْـــرَةُ

فَخَرَجُوا يَمْشُونَ))[1].

فانظر إلى هؤلاء النفر الثلاثة خرجوا إلى أمر ما ! ثم وقع لهم ما وقع من حبسهم في الغار ، وسدت الصخرة عليهم الباب ، وأيقنوا جميعا بالهلكة ، ولكن جمعتهم الطاعة والموافقة على رضى **الله** ﷻ ، فطلب بعضهم من بعض أن يتوسل إلى الله بأرجى عمل له ! فإن الطاعات جَمَّاعة ، والمعاصي مَحَّاقة ، إذ يستحيل أن يكون لكل منهم هذا العمل فحسب .

فقاموا يَدْعُون ، فدعا الأول ببره لأبويه ، ودعا الثاني بحفظه لفرجه ، ودعا الثالث بحفظه لحق أجيره وتنميته له ، ففرج الله كربهم ، وأذهب همهم ، وخرجوا بعد الموت المحقق يمشون .

تخيل معي لو أن واحدا منهم كان صاحب سوء ! أو صديق منفعة ! أو صاحب لذة ! أو فاقدا لعمل صالح أخلصه لله ! فكيف كان حالهم !

قلة المخالطة سببٌ في حفظ اللسان

أعظم آفة وأخطرها على العبد لسانه ، فهو أسهل أعضائه تحركاً ، وأعظمها أثرا ، إذ يتناول جميع الأشياء معنويها ، ومحسوسها بخلاف باقي الأعضاء .

ولذلك تعد على العبد ألفاظه استمع لقول الله تعالى : ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق : ١٨]

ورغم ذلك هو أعصى الأعضاء على العبد ؛ إذ لا تعب في إطلاقه ، ولا مُؤْنة في تحريكه ، وقد يتساهل العبد في الاحتراز من آفاته ، والحذر من مصائده وحبائله ؛ فهو أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان . ولا يتم عمل اللسان إلا بوجود الطرف الآخر ! الأُذُن التي تسمع له ، ولا يتم ذلك

---

(١) البخاري : (٢٢٧٢) ، مسلم : (٢٧٤٣) .

إلا بالمخالطة . ولذلك حذر النبي ﷺ من خطورته وآفته .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمُعَاذ بْن جَبَلٍ : ((**كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**)) – وَأَخَذَ بلِسَانه – فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّه وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ به ، فَقَالَ : ((**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**))[١]. وهذا ينبئك عن خطورته وعظيم أثره .

تأمل قول النبي ﷺ ((**كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**)) أي سلامة حبسه أعظم من إطلاقه ولذلك بين النبي ﷺ خطورة الكلمة الواحدة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ : ((**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَنْزِلُ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**))[٢].

هذا في كلمة واحدة فكيف بباقي المهلكات : من خطأ ، وغيبة ، ونميمة ، ورياء ، ونفاق ، وفُحْش ، ومِراء ، وتزكية نفس ، وخوض في باطل ، وفُضُول ، وتحريف ، وزيادة ونقص ، وغيرها من الآفات التي لا تتم إلا بالمخالطة .

ولذلك نرى أن النبي ﷺ نهى عن السَّمر بعد العشاء ؛ لما فيه من حفظ الوقت ، واللسان ؛ وقد نصحت عائشة رضي الله عنها ابن أختها بذلك .

عَنْ عُرْوَةَ قَالَ : سَمِعَتْنِي عَائِشَةُ وَأَنَا أَتَكَلَّمُ بَعْدَ الْعِشَاءِ الآخِرَةِ ؛ فَقَالَتْ : يَا عُرَيُّ ! أَلاَ تُرِيحُ كَاتِبَيْكَ ؟ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ لَمْ يَكُنْ يَنَامُ قَبْلَهَا ، وَلاَ يَتَحَدَّثُ بَعْدَهَا[٣].

---

(١) حسن : الترمذي (٢٦١٦) ، ابن ماجة (٣٩٧٣) ، أحمد (٢١٥١١) .

(٢) مسلم : (٢٩٨٨) .

(٣) ابن حبان (موارد ٢٧٥) ابن أبي شيبة (المصنف ٢١٤٩) .

مخالطة ذوي المناصب والسلطان

فمخالطة من ابتلى بمنصب أو سلطان ، يندر فيها النفع ويعظم فيها الإثم ، قل أن يسلم من خالطهم في دينه أو عرضه . لأنه لا يسلم منهم من فعل المخالفات وتعدي حدود الله إلا من رحم الله ، فمن وافقهم ضيع آخرته ، ومن خالفهم ضيَّعوه ، فالبعد عنهم فضيلة ، ومحمدة عظيمة ، فمن سالمهم نجا ، ومن دخل أبوابهم هلك .

أُدْخِل سفيان الثوري على المهدي بمنى ، فلما سلم عليه قال له : أيها الرجل طلبناك فأعجزتنا ، فالحمد لله الذي جاء بك ، فارفع إلينا حاجتك . فقال سفيان : قد ملأت الأرض ظلما وجورا فاتق الله ، وليكن منك في ذلك عبرة ، فطأطأ المهدي رأسه ثم رفعه وقال : أرأيت إن لم أستطع رفعه ، قال : تخليه لغيرك . فطأطأ المهدي رأسه ثم قال : ارفع إلينا حاجتك ، قال سفيان : أبناء المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان بالباب ، فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم ، فطأطأ المهدي رأسه . فقال سفيان : أيها الرجل ارفع إلينا حاجتك . فقال المهدي : وما أرفع ! قال سفيان :

حدثني إسماعيل بن أبي خالد قال : حج عمر بن الخطاب ، فقال لخازنه كم أنفقت ، قال بضعة عشر دينارا ؛ وأرى هنا أمورا لا تطيقها الجبال[1].

وعن عبد الله بن المبارك قال : سمعت سفيان الثوري يقول : لم أر للسلطان إلا مثلا ضُرب على لسان الثعلب . قال : قال : الثعلب عرفت

(١) أبو نعيم (الحلية ٧/٤٤) .

للكلب نيفا وسبعين دستانا[١] ، ليس منها دستان خيرا من أن لا أرى الكلب ولا يراني . قال سفيان : ليس للسلطان خير من أن لا يراك ولا تراه[٢].

وهذا وإن الداخل عليهم والمخالط لهم متعرض لمعصية لا محالة ، حتى ولو لبس عليه من مصلحة بالدخول عليهم بسبب :-

١- إما بسبب شبهة في مالهم ، لما لهم من جراءة على كسب الحرام إلا ما رحم الله منهم .

٢- وإما لظلمهم فتكون ممن يغشاهم ويخالطهم ، فينالك نصيب من العذاب ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ** ﴾ [هود : ١٣]

٣- أو أن يتحرك قلبك بحبهم لتخصيصهم إياك بالمودة ، وإيثارهم لك بما قربوك وأدنوك ، وهذا السُّم القاتل ، والداء الدفين ، فإن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها ، فتتغافل عن ظلمهم وربما تجد لها مبررات .

٤- التحرج من دعوتهم وتذكيرهم بالله ، وذلك لمكانتهم وتعظيمهم لأنفسهم ، فإما أن تخشاهم ، وإما أن تداهنهم ، وربما تقع مظلمة في وجودك معهم ، فيكون حظك منها السكوت ؛ فتتعرض للوعيد .

فالبعد عنهم مع دعاء الله بهدايتهم وإصلاحهم ؛ خير من الوقوف على أبوابهم ، أو في مجالسهم والله أعلم .

مخالطة الأحمق والجاهل

الحمق والجهل آفتان وبليتان من ابتلي بهما فهو نَكدٌ على نفسه وعلى الناس ، تضيق به الدنيا وإن اتسعت ، ويَسْوَدُّ به المكانَ وإن كان في رابعة

---

(١) دستان : كلمة فارسية معناها كلام مبالغ فيه غير محرر .

(٢) أبو نعيم (الحلية ٧/٤٤) .

النهار ، تضيق نفسه وإن كان في رغد وسعة عيش ، يمله الناس وإن كان أقرب الناس إليه كالزوجة والولد .

قال ابن حبان رحمه الله [(١)]:

ومن شيم الأحمق ، العجلة ، والخفة ، والعجز ، والفجور ، والجهل ، والمقت ، والوهن ، والمهابة ، والتعرض ، والتحاسد ، والظلم ، والخيانة ، والغفلة ، والسهو ، والغي ،والفحش ، والفخر ، والخيلاء ، والعدوان ، والبغضاء .

وإن من أعظم أمارات الحمق في الأحمق لسانه ، فإنه يكون قلبه في طرف لسانه ما خطر على قلبه نطق به لسانه .

والأحمق يتكلم في ساعة بكلام يعجز عنه سحبان وائل[(٢)] ويتكلم في الساعة الأخرى بكلام لا يعجز عنه باقل[(٣)] ، والعاقل يجب عليه مجانبة من هذا نعته ، ومخالطة من هذه صفته فإنهم يجترئون على من عاشرهم ، ألا ترى الزط[(٤)] ليسوا هم بأشجع الناس ولكنهم يجترئون على الأُسد لكثرة ما يروها .

احْـــذَر الأَحْمَقَ أَنْ تَصْحَبَهُ	إِنَّمَا الأَحْمَقُ كالثَّوب الخَـــلَق
كُلَّمَـــا رَقَعْتَـــهُ مِنْ جَانِب	حَرَّكَتْـــهُ الريحُ وَهْنَاً فَانْخَرَق
أَوْ كَصَدْعٍ في زُجَاجٍ فَاحَشٍ	هَلْ تَرَى صَدْعَ زُجَاجٍ يَلْتَصق
كَحِمَـــارِ السَّوءِ إنْ أَقْضَمْتَهُ	رَمَـــحَ النَّاسَّ وإن جَاعَ نَهَـــق
وإِذَا جَالَسْتَهُ فـــي مجلـــسٍ	أَفْسَدَ المجلس مِنْـــهُ بالـــخَرَق

(١) ابن حبان (روضة العقلاء ١٢١) .

(٢) سحبان بن زفر الوائلي : من الفصحاء البلغاء يضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة .

(٣) باقل : هو عمرو بن ثعلبة الأيادي يضرب به المثل في العي . فيقال : فلان أعيا من باقل .

(٤) الزُط : جنس من السودان والهنود طوال الأجسام مع نحافة .

وإذا نَهْنَهْتَهُ كي يَرْعَـــوي زَادَ شَرّاً وتَمَادَى في الحَــمَق
عَجَبــاً للنَّاسِ في أَرْزَاقهــم ذَاكَ عَطْشَانٌ وهَذَا قَدْ غَــرِق

قال ابن حبان رحمه الله[1] :

من علامات الحمق التي يجب للعاقل تفقدها ممن خفي عليه أمره ، سرعة الجواب ، وترك التثبت ، والإفراط في الضحك ، وكثرة الالتفات ، والوقيعة في الأخيار ، والاختلاط بالأشرار ، والأحمق إذا أعرضت عنه اغتم ، وإن أقبلت عليه اغتر ، وإن حلمت عنه جهل عليك ، وإن جهلت عليه حلم عنك ، وإن أسأت إليه أحسن إليك ، وإن أحسنت إليه أساء إليك ، وإذا ظلمته انتصف منك ، ويظلمك إذا أنصفته .

والجهل آفة عظيمة ؛ صاحبها لا يعرف حق الله ولا حق العباد ، يسير في الحياة كالسائمة ، إن أراد أن يصلح أفسد ، وإن أراد أن ينفعك ضرك ، وإن أراد أن يصحبك ملك ، فإن زاد جهله ، وقلبت عنده الأمور ، كدر صفوك ، وأظلم قلبك ، وباعد بين روحك وجسدك كما بين المشرقين .

وكلما تقارب الزمان ، وقل العلم ، وانشغل الناس بالدنيا ، كثر هذا الصنف وزاد ، فلا ترى صاحب علم إلا وهو مكلوم مهموم .

فهذا إن صحبته عنَّاك ، وإن اعتزلته شَتَمك ، وإن أعطاك مَنَّ عليك ، وإن أعطَيْتَه كَفَرَك ، وإن أَسَرَّ إليك اتهمك ، وإن أَسْرَرْت إليه خانك ، وإن كان فوقك حَقَرك وإن كان دونك غَمَزك .

---

(١) ابن حبان (روضة العقلاء ١١٩) .

وقد أنشد بعضهم :

ولا تَصْحَبْ أخا الجَهلِ وإيَّـاكَ وإيَّـاه
فَكَمْ منْ جَاهلٍ أَرْدَى حَليمًا حـينَ آخَاه
يُقَاسُ المَـرْءُ بالمَـرْءِ إذَا مَا هُو مَاشَـاه
وللشَيء منَ الشَّـيءِ مَقَاييس وأَشْبَـاه
وللقَلْبِ عَلَـى القَلْبِ دَليلٌ حينَ يَلْقَـاه

والواجب على العاقل ترك صحبة الأحمق والجاهل ومجانبة معاشرقم ، كما يجب عليه لزوم صحبة العاقل الأريب ، وعشرة الفطن اللبيب . لأن العاقل وإن لم يصبك الحظ من عقله أصابك من الاعتبار به .

والأحمق والجاهل إن لم يُعْدك حُمْقُه وجهله ، تدنَّسْت بعشرته .

مخالطة الثقلاء والمتطفلين

فالثقل حمل على القلب والتطفل تشويش للعقل ، فإذا ابتلي العبد بشخص ثقيل جالسه فحمله على القلب أشد من حمله على الوسادة التي يجلس عليها ، وإذا ابتلي بمتطفلٍ ؛ فَهَمُّ الخلاص منه يشوش العقل ويُنَدِّر بصاحبه من يراه .

مخالطة الثقلاء

وقيل ورد في الثقلاء آية .

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبيِّ إلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظرينَ إنَاهُ وَلَكنْ إذَا دُعيتُمْ فَادْخُلُوا فَإذَا طَعمْتُمْ فَانْتَشرُوا وَلا مُسْتَأْنسينَ لحَديث إنَّ ذَلكُمْ كَانَ يُؤْذي النَّبيَّ فَيَسْتَحْيي منْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيي منْ الْحَقِّ** ﴾ [الأحزاب : ٥٣]

قال ابن أبي حاتم : قال سليمان بن أرقم : نزل في الثقـلاء آيه وذكـر ((فَإذَا طَعمْتُمْ فَانْتَشرُوا وَلا مُسْتَأْنسينَ لحَديثٍ)).

وقال القرطبي : قال حماد بن زيد : هذه الآية نزلت في الثقلاء .

قال النسفي : هذا أدب أدب الله به الثقلاء .

قال الألوسي : إنها آية الثقلاء .

وروي في قصة نزولها هذا الحديث .

قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالك : أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِهَذِهِ الآيَةِ آيَةِ الْحِجَابِ لَمَّا أُهْدِيَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَتْ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ صَنَعَ طَعَامًا وَدَعَا الْقَوْمَ فَقَعَدُوا يَتَحَدَّثُونَ فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُجُ ثُمَّ يَرْجِعُ وَهُمْ قُعُودٌ يَتَحَدَّثُونَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ** ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ **مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ** ﴾ فَضُرِبَ الْحِجَابُ وَقَامَ الْقَوْمُ (١).

والثقلاء : أقوام لا للآخرة عملوا ، ولا بالدنيا انشغلوا ؛ فهم أقوام لا حرفة لهم إلا ضياع الأوقات ، وقضاء الساعات عند هذا وذاك ، فهم على القلب أشد من الجبل وعلى النفس أثقل من حمّالة الحطب ، من ابتلي بهم ضجَّروه ، وربما أخرجوه عن طباعه وهيجوه .

ويقال للثقيل : فجج وغنتج وكانون .

ابن الأعرابي : الفُجُجُ : الثُّقَلاء من الناس .

وقال أيضا : الكَانون : الثقيل من الناس .

وأُنشد للحطيئة :

أَغُرْبَالاً إذا استُودعْتَ سراً ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وَكَانُونَاً عَلَى المُتَحَدِّثينا

وقال ابن بري : الغَنْتَجُ : الثقيل الأحمق .

---

(١) البخاري (٤٧٩٢) ، مسلم (١٤٢٨) .

قال المأمون يوماً لجلسائه : لم صار الثقيلُ أثقلَ على القلبِ من الحمل الثقيل ، فلم يجب منهم أحد ، وقالوا أمير المؤمنين أعلم.

فقال لأنه يجتمع على الحمل الثقيل الروح والبدن ، والثقيل تنفرد به الروح[١].

قال الفضل بن المهلب : الثقلاء ثلاثة : رجل كان يزور قوماً يستثقلونه تركهم فغاب عنهم ، فأفسحت أبصارهم وطابت نفوسهم ! ثم أتاهم يعتذر عن تخلفه عنهم .

ورجل أتى رجلين وهما في حديث قد أعجبهما ؛ فقعد إليهما من دون الناس ، فدخل فيما يليهما فلما بلغ منهما ، قال : لعلكما كنتما تناديان عليّ .

والثالث : رجل انتهى إلى حلقة قوم فأقبل على الذي يليه فقال إيش هو في بغداد ، فهو لا يسمع ، ولا يدع من يسمع يفهم عن الحديث[٢].

قال عبد الله بن نصر أنشدني أبو سعيد الأهوازي :

لَشُؤْمُ بَخْت وَقَضْـمُ قَت ... وَأَلْـفُ سَبْت وَأَرْبَعَـا
وَثُقْلُ صَـخْرٍ وَغَيْمُ شَهْرٍ ... وَطُولُ هَجْرٍ عَلَى جَفَـا
وَكَسْرُ ضِلْعٍ وَنَتْفُ صُدْغٍ ... بِمَـاءِ صَمْـغٍ وَمُومِـيا
أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَرَاكَ عَيْـنِي ... تَمْشِي صَحِيحاً عَلَى الفَضَا
أَيَا بَغِيضاً تَضِجُّ مِنْهُ الأَرْضُ ... ضَجِيجَـاً إِلى السَمَا[٣].

كان سويد بن عبد العزيز فاضلاً ، وكان يقول : من ثقل عليك بنفسه ،

---

(١) أبو بكر ابن المرزبان (الثقلاء ص ٣١) .

(٢) أبو بكر ابن المرزبان (الثقلاء ص ٦٨) .

(٣) أبو بكر ابن المرزبان (الثقلاء ص٣٢) .

وغمك في سؤاله ، فألزمه أذناً صماء ، وعيناً عمياء[١].

قال الشعبي : من فاتته ركعتا الفجر فليلعن الثقلاء[٢].

وكان حماد بن سلمة إذا زاره من يستثقله قال : ﴿ **رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ** ﴾ [الدخان : ١٢]

من نوادر الثقلاء

أهدى رجل إلى الأعمش بطيخة ، فلما أصبح جلس الأعمش فقال له الرجل : يا أبا محمد كيف كانت البطيخة ، قال : طيبة ، ثم عاد ثانية فقال : طيبة ، ثم عاد الثالثة فقال الأعمش : إن كففت عني وإلا تقيأتها[٣].

قال ابن عبد ربه[٤].

أهدى رجل من الثقلاء إلى رجل من الظرفاء جملا ، ثم نزل عليه حتى أبْرَمَه ، فقال فيه :

يَا مُبْرِمَاً أَهْدَى جَمَل ... خُذْ وَانْصَرِفْ أَلْفَي جَمَل
قَالَ وَمَا أَوْقَارُهَا ؟ ... قُلْتُ زَبِيبٌ وَعَسَل
قَالَ وَمَنْ يَقُودُهَا ؟ ... قُلْتُ لَهُ أَلْفَا رَجُل
قَالَ وَمَنْ يَسُوقُها ؟ ... قُلْتُ لَهُ أَلْفَا بَطَل
قَالَ وَمَا لِبَاسُهُم ؟ ... قُلْتُ حُلِيٌّ وَحُلَل
قَالَ وَمَا سِلاحُهُم ؟ ... قُلْتُ سُيُوفٌ وأَسَل[٥]

---

(١) أبو بكر ابن المرزبان (الثقلاء ص ٥٤) .

(٢) أبو بكر ابن المرزبان (الثقلاء ص ٢٦) .

(٣) أبو بكر ابن المرزبان الثقلاء ص ٥٦) .

(٤) (العقد الفريد ٢/١٥٥) .

(٥) أسل : رماح .

قَــالَ بهَذَا فَاكْتُبُــوا إِذَنْ عَليكُم لي ســجل
قُلْتُ لَهُ أَلْفَــيْ سجل فَاضْمَن لَنَا أَنْ تَرْتَحِــل
قَالَ وَقَــدْ أَضْجَرْتُكُم قُلْــتُ أَجَــل ثُمّ أَجَــل
قَالَ وَقَــدْ أَبْرَمْتُكُــم قُلْــتُ لَهُ الأَمْــر جَلَل
قَالَ وَقَــدْ أَثْقَلْتُكُــم قُلْــتُ لَــهُ فَــوْقَ الثقَل
قَالَ فَإِنــي رَاحِــل قُلْتُ العَجَــل ثُمَّ العَجَل
يَاكَوْكَبَ الشُّؤْم وَمَنْ أَرْبَى عَلَى نَحْسِ زُحَــل
يَاجَــبَلاً من جــبلٍ فِي جَبَــلٍ فَوْقَ جَبَــل

جاء رجل إلى الأعمش فقال : يا أبا محمد اكتريت حمارا بنصف درهم ، وأتيتك أسألك عن حديث كذا وكذا . فقال : اكتر بالنصف الآخر وارجع[1].

وربما يؤدي مجالسة الثقلاء إلى حالة من فقدان السيطرة على النفس ، فيقع في أمر عظيم ، منها ما روي عن رجلٍ قدم عليه ابن عم له من البصرة زائرا ؛ فأقام عنده أياماً ، ما قدَّم إليه شيئاً وخرج فأنشأ يقول :

أَلاَ يا أَوْخَــمَ الثقَلــين طُــرًّا وأَثْقَــلُ ما تَرَدَّدَ في الصُــدُور
رأيتُ كأنمــا الرحْمنُ ربــي بَرَاكَ اليــومَ مِنْ صُمِّ الصُخُور
فلا تَبْغي الشُّخُوصَ ولا تَشَكّي ولا تَبْلى علـــى مر الدُّهُـــور
قُعُــودُكَ ما قَعَــدتَ عليَّ غَمٌّ وقدْ أكْنَنْتُ بُغْضَكَ في الضَمير
فــلا واللــه لا أَنْسَاكَ حــتى يُسَيّرَني الرجَــالُ إلى القُــبور
ولــو في جَنْــة كُــنَّا جميعــاً نُنَعَّمُ في الخيام وفي القُصُــور
إِذَنْ خَليتُها وخَــرجْتُ مِنْهــا لبُغْضِكَ وانتقَلْتُ إلــى السَعير

(١) أبو بكر ابن المرزبان الثقلاء (ص ٥٨) .

قال : فلما خرج ابن عمه ، إذا ابن عم له آخر قد ورد عليه ، فأقبل يتأمله قبل جلوسه ثم أنشأ يقول :

أَلا يَا مَعْشَرَ الثُقَلاءِ أَنْتُم ... قَوَائِمُ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ جَلِيدِ
إِذَا مَا غَابَ كَانُونٌ فَوَلَّى ... أَتَى دَهْرٌ بِكَانُونٍ جَـــدِيدِ

ثم جلس فتحادثا ساعة ، ثم إن ابن عم له آخر ورد وهما يتحادثان فجلس ، ثم أنشأ يقول :

يَا ثَقِيلانِ قَدْ عَرَضْتُ عَلَيْكُمَا ... جَمِيعَ أَطَــارِفِي وَكُلَّ تلادي
أَنْتُمَا مَعْدَنُ الرَّصَاصِ فَقُومَـــا ... قَدْ شَكَا مِنْكُمَا إِلَيَّ فُؤَادِي[1]

نزل بعض أهل البَصرة على مديني ، وكان صديقا له ، فألح على المديني بطول المقام ، فقال المديني لامرأته : إذا كان غدا فإني أقول لضيفنا كم ذراعا تقفزه ، فأقفز أنا من العَتَبة إلى باب الدار ، فإذا قفز الضيف أغلقي الباب خلفه ، فلما كان من الغد قال له المديني : كيف قفزك يا أبا فلان ؟ قال : جيد ، فوثب المديني من داخل منْزله إلى خارج الدار أذرعا ، ثم قال للبصري : ثب . فوثب إلى داخل الدار ذراعين ، فقال له المديني : أنا وثبت خارج الدار أذرعا ، وأنت وثبت إلى داخل الدار ذراعين ! قال : ذراعين إلى الداخل خير من أربعٍ إلى الخارج[2].

مخالطة المتطفلون

قال الأصمعي : الطفيلي – الداخل على القوم من غير أن يدعى ، مأخوذ من الطفل وهو إقبال الليل على النهار بظلمته ، وأرادوا أن أمره يظلم

(١) أبو بكر ابن المرزبان (الثقلاء ص ٦٣) .
(٢) الخطيب (التطفيل ص ٢٣) .

على القوم فلا يدرون من دعاه ولا كيف دخل إليهم[١].

ويسمى الطفيلي : الوارش والواغل والأرشم والزلال والقسقاس والنتل والدامر .... الخ[٢].

وهذا الكم العظيم من الأسماء ! ينبئك عن حالة الهياج الذهني الذي يصيب من ابتلي بهؤلاء .

وورد في المتطفلين نوادر ! حتى صنف الخطيب فيه كتابا .

قال صاحب اللسان : نُسب التطفيلُ لشاعر معروف اسمه طفيل .

ومنها : ما ورد عن طفيلٍ هذا ، واسمه طفيل العرائس :[٣] يوصي ابنه عبد الحميد بن طفيل في علته فيقول : إذا دخلت عرساً ، فلا تلتفت تلفت المريب ، وتخير المجالس فإن كان العرس كثير الزحام فأمر وانه ، ولا تنظر في عيون أهل المرأة ، ولا في عيون أهل الرجل ليظن هؤلاء إنك من هؤلاء ويظن هؤلاء أنك من هؤلاء ، فإن كان البواب غليظاً ، وقّاحاً ، فابدأ به ومره وانهه من غير أن تعنفه ؛ وعليك بكلام بين النصيحة والإدلال .

لا تَجْزَعَنَّ مِنَ الْقَرِيب ... وَلا مِنَ الرَّجُلِ الْبَعِيد
وادْخُلْ كَأَنَّكَ طَابِخٌ ... بِيَدَيْكَ مَغْرَفَـةَ الثَّرِيدَ
مُتَدَلِّيَاً فَوْقَ الطَّعَـامِ ... تَدَلِّيَّ البَازِي الصَّـيُودَ
لِتَلُفَ مَا فَوْقَ المَوَائِدَ ... كُلَّها لَـفَّ الفُهُـودَ
واطْرَحْ حَـيَاءَكَ إنَّمَا ... وَجْهُ المطَفِّل مِنْ حَدِيدَ
لا تَلْتَفِتْ نَحْو الْبَقُولِ ... وَلا إِلا غَـرْفَ الثَّرِيدَ

---

(١) الخطيب (التطفيل ص ١٠) .

(٢) لسان العرب (٢٦٨٣/٤) .

(٣) الخطيب (التطفيل : ٥٥) .

حَتَّى إِذَا جَاءَ الطَّعَامُ ضَرَبْتَ فيـــه بالشَّديد
وَعَلَيْكَ بِالْفَالُوذَجَات فَإِنَّهَا عَـيْنُ الْقَصــيد
هَذَا إِذَا حَرَّرْتَهُـــمْ وَدَعَوْتَهَمْ هَلْ مِنْ مَزِيد
والعُرْسَ لا يَخْلُو مِنَ اللَّوْزَينج الرَّطب العَتِيدْ
فَإِذَا أَتَيْتَ به مَحَوْتَ مَحَاسَنَ الجَامِ الجَدِيد

ثم أُغمي عليه ساعة عند ذكر اللوزينج فلما أفاق رفع رأسه وقال :

وَتَنَقَّلَنَّ عَلَى الْمَــوائد فعْــلَ شَيْطَان مَريــد
وَإِذَا انْتَقَلْــتَ عَبَثْتَ بِالْكَعْك الْمُجَفَّفِ وَالْقَديدْ
يَا رَبِّ أَنْتَ رَزَقْتَــني هَذَا عَلَى رَغْمِ الْحَسُودَ
واعْلَمْ بِأَنَّكَ إِنْ قُتِلْتَ نُعِّمْتَ يَا عَبْدَ الحَمِيد

هذا من طفيلي !

قال نصر بن علي الجهضمي : كان لي جارٌ طفيلي ، وكان من أحسن الناس منظراً ، وأعذبهم منطقاً ، وأطيبهم رائحة ، وأجملهم لباساً ، فكان من شأنه أني إذا دعيت إلى مدعاة تبعني ، فيكرمه الناس من أجلي ، ويظنون أنه صاحب لي ، فاتفق يوماً أنَّ جعفر بن القاسم الهاشمي أمير البصرة أراد أن يختن بعض أولاده ، فقلت في نفسي كأني برسول الأمير قد جاء ، وكأني بهذا الرجل قد تبعني ، والله إن تبعني لأفضحنه ، فأنا على ذلك إذ جاء رسوله يدعوني ، فما زدت أن لبست ثيابي وخرجت ، وإذا أنا بالطفيلي واقف على باب داره قد سبقني بالتأهب ، فتقدمت وتبعني ، فلما دخلنا دار الأمير جلسنا ساعة ودُعِيِّ بالطعام ، وحضرت الموائد ، وكان كل جماعة على مائدة لكثرة الناس ، فقدمت إليّ مائدة والطفيلي معي ، فلما مد يده وشرع لتناول الطعام ، قلت: أنبأنا دُرُسْتُ بن زياد عن أبان بن طارق عن نافع عن

ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ((**مَنْ دَخَلَ دَارَ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَأَكَلَ طَعَامَهُم دَخَلَ سَارِقًا وَخَرَجَ مُغِيرًا**))[١] ، فلما سمع ذلك قال : أنفت لك والله أبا عمرو من هذا الكلام ! فإنه ما من أحد من الجماعة إلا وهو يظن أنك تعرض به دون صاحبه . أولا تستحي أن تتكلم بهذا الكلام على مائدة سيد من أطعم الطعام ! وتبخل بطعام غيرك على من سواك . ثم لا تستحي أن تحدث عن دُرُسْتِ بن زياد وهو ضعيف ، عن أبان بن طارق وهو متروك الحديث ، تحكم برفعه إلى النبي ﷺ والمسلمون على خلافه ! لأن حكم السارق القطع ، وحكم المُغير أن يُعَزَّر على ما يراه الإمام .

وأين أنت عن حديث حدثناه أبو عاصم النبيل عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : ((**طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِي الاثْنَيْنِ وَطَعَامُ الاثْنَيْنِ يَكْفِي الأَرْبَعَةَ وَطَعَامُ الأَرْبَعَةِ يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ**)) وهو إسناد صحيح ومتن صحيح .

قال نصر بن علي : فأفحمني فلم يحضرني له جواب ، فلما خرجنا من الموضع للانصراف ، فارقني من جانب الطريق إلى الجانب الآخر بعد أن كان يمشي ورائي ، وسمعته يقول :

وَمَنْ ظَنَّ مِمَّنْ يُلاقِي الحُرُوبَ   بِأَنْ لا يُصَابُ فَقَدْ ظَنَّ عَجْزًا[٢]

والتطفل لا يشترط في الطعام فحسب ، بل كل من دخل فيما لا يعنيه فهو متطفل ، وقد كثروا في هذا الزمان ، حتى أصبح هم الكثير من الناس الاطلاع على أحوالك ومعرفة أسرارك ؛ بل ماذا أكلت وماذا شربت ! إن

---

(١) ضعيف : أبو داود (٣٧٤١) البيهقي (٦٨/٧) القضاعي (مسند الشهاب : ٥٢٩) .

(٢) الخطيب (التطفيل : ٥٢) .

رأوك متبسماً تعجبوا ، وسألوا عن سر ابتسامك ، وإن رأوك حزيناً ، دهشوا وسألوا عن سر حزنك .

نصائح نادرة

أخي الحبيب ! كن للناس واعظاً ، ناصحاً ، ولا تريهم منك إلا خيراً ، فإن عرفك الناس بالخصال الحسنة ، والشمائل الزكية ، فإنهم حتى ولو لم يحبوك ، فإنهم سيعظموك ويقدروك ، بخلاف ما لو كنت مبذولا لهم ، قد بدت مساوئك أمامهم ، فإذا بك قد شغلتهم وشغلوك .

يقول عمر بن الخطاب وهو يعظ رجلاً : لا تتكلم فيما لا يعنيك ، واعرف عدوك ، واحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من يخشى الله ، ولا تمش مع الفاجر فيعلمك من فجوره ، ولا تطلعه على سرك ، ولا تشاور في أمرك إلا الذين يخشون الله ﷻ [1].

يقول الحسن : كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقوا يقول الرجل لصاحبه : هل أتاك أنك وارد ، فيقول : نعم ، فيقول : هل أتاك أنك خارج منها ، فيقول : لا ، فيقول : ففيم الضحك إذا[2].

يقول يحيى بن أبي كثير الطائي : من عاشر الناس داراهم ، ومن داراهم راياهم[3].

أي وقع في الرياء ، يريهم خلاف ما هو عليه فهل تريد أن تكون حركاتك وسكناتك مرصودة منك لغير الله .

---

(١) ابن الجوزي (صفة الصفوة : ٢٨٧/١) .

(٢) ابن أبي شيبة (المصنف : ٣٥١٩٦/٧) .

(٣) ابن أبي الدنيا (مداراة الناس : ١٣٥) .

يقول **محمد بن يوسف الضبي** : استشرتُ سفيان الثوري في المقام بالشام فقال : لا أرى لك ذلك ، لأنها بلاد فتنة ، ولكن إن صح عزمك فعليك ببعض السواحل ، ثم استفدْ مائة صديق ، فإذا استقصيت أمرهم فاطرح تسعة وتسعين ، وكن من الواحد في شك . واعلم أنه لم يكن في الأرض إلا وزيران - ولدَيْ آدم - غضب أحدهما على الآخر فقتله ![1].

أيها الحبيب : إليك هذه النصيحة النادرة ، من عالِمٍ تربى في الملك ، والجاه ، والسلطان ، وعاش في أكناف العز والسؤدد ، تخدمه الجواري والغلمان . صفقت له الدنيا ، ومالت له الآذان ، ولكنه اختار طريق الآخرة ، فتنكر له الأخ القريب قبل البعيد ، خَبَر الناس وعاشرهم ، رأى من استقام معه في الشدة والرخاء ، ورأى من مال معه مع الدنيا ، فلما غرب شمسُها مال معها . إنه **ابن حزم الأندلسي** ، يقول رحمه الله[2] : من امتُحن أن يخالط الناس فلا يُلْقِ تَوَهُّمَه كُله إلى من صَحِب . ولا يَبْنِ منْه إلا على أنه عدوٌّ مُنَاصب ، ولا يُصبح كل غَداة إلا وهو مترقبٌ من غدرِ إخوانه ، وسوءِ معاملتهم ، مثل ما يترقبُ من العدو المُكاشف . فإن سلم من ذلك فلله الحمد !. وإن كانت الأخرى أُلْفيَ متأهباً ، ولم يَمُتْ هماً .

ولا يستعملُ مع ذلك سُوءَ المعاملة !! . فيُلْحَقَ بذوي الشرورِ من الناس ، وأهل الخب منهم .

ولكن هاهنا طريقٌ وعرَةُ المسالك ، شاقةُ المُتَكَلِّف ، يحتاج سالكها إلى أن يكون أهدى من القَطَا ، وأحذَرَ من العَقْعَق[3] ، حتى يفارق الناس راحلا

---

(١) ابن أبي الدنيا (مداراة الناس : ١٣٢) .

(٢) مداواة النفوس (٣٢) .

(٣) **العَقْعَق** : طائر نحو الحمامة طويل الذنب فيه بياض وسواد تتشاءم منه العرب .

إلى ربه تبارك وتعالى ، وهي طريق الفوز في الدين الدنيا . وهي أن تَكْتُم سر كل من وَثق بك . وأن لا تفشي إلى أحد من إخوانك ، ولا من غيرهم ما يمكنك طيه بوجه ما من الوجوه ، وإن كانٍ أخص الناس بك .

وأن تفي لجميع من ائتمنك . ولا تأتمن أحداً على شيء من أمرك تُشْفقُ عليه ، إلا لضرورة لا بد منها ، فارتد حينئذ واجتهد وعلى الله الكفاية .أ هـ

رابعاً : الشبع

أعظم المهلكات وأشدها فتكاً على الإنسان شهوة البطن ، فهي أصل كل بلية ، ومبدأ كل رزية ، ومنبت كل داء وآفة ، إذ يتبعها شهوة الفرج ، وشدة الشبق والرغبة إلى المنكوحات ، فكلما شبع الإنسان زادت شهوته وعظمت رغبته في النكاح ، ولذلك حث النبي ﷺ الشباب حال عجزهم عن تكاليف النكاح بالصوم ، لكسر الشهوة وتخفيفها .

عَنْ عَبْد اللَّه ﷺ قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبيِّ ﷺ فَقَالَ : ((**مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْه بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**))(١).

وبشهوة البطن خرج الأبوان من الجنة ، فوسوس لهما الشيطان وزيّن لهما فَضْلَ طُعْمَة زائدة عن المُلْك والنعيم الذي أوجدهما الله فيه ، ورغم تحذير الله لهما وقَع المحظور .

قال تعالى : ﴿ **فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّة فَتَشْقَى ۞ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى ۞ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى ۞ فَوَسْوَسَ إِلَيْه الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَة**

(١) البخاري : (٥٠٦٥) ، مسلم : (١٤٠٠) .

الْخُلْد وَمُلْك لا يَبْلَى ۞ فَأَكَلا منْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفقَا يَخْصفَان عَلَيْهِمَا منْ وَرَق الْجَنَّة وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [طـه : ١١٧ - ١٢١]

انظر ! فما ترى من آفة ، ففتشت عن أصلها ، ومبدئها ، إلا وترى البطن أصلها ، ومبدأها ، ومحركها .

فإن الشبع يؤدي إلى التوسع في المطعومات ، والمنكوحات ، ثم يتبع ذلك الاستكثار من المال ، والجاه ، والمنافسات ، والحسد ، والعداوة والبغضاء ، ثم يؤدي بعد ذلك إلى البغي والمنكر والفاحشة ، وكل ذلك متولد من الشبع والامتلاء .

مجاوزة الحد من الطعام

ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ [الأعراف : ٣١]

حذر سبحانه من الإسراف ومجاوزة الحد من الشبع . أي الزائد من الطعام .

إذ الاستكثار من أي شيء في الدنيا مضر بالعبد سواء في بدنه أو دينه ، وقد حذرنا النبي ﷺ من الاستكثار من زهرة الدنيا كما صح عنه ﷺ : عَنْ أَبي سَعيد الْخُدْريِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « **إِنَّ أَكْثَرَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ منْ بَرَكَات الأَرْضِ** » قيلَ : وَمَا بَرَكَاتُ الأَرْض قَالَ : « **زَهْرَةُ الدُّنْيَا** » فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : هَلْ يَأْتي الْخَيْرُ بالشَّرِّ فَصَمَتَ النَّبيُّ ﷺ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْه ثُمَّ جَعَلَ يَمْسَحُ عَنْ جَبينه فَقَالَ : « **أَيْنَ السَّائلُ** » قَالَ : أَنَا قَالَ أَبُو سَعيد : لَقَدْ حَمدْنَاهُ حينَ طَلَعَ ذَلكَ ، قَالَ : « **لا يَأْتي الْخَيْرُ إِلاَّ بالْخَيْر إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضرَةٌ حُلْوَةٌ**[١] **وَإِنَّ كُلَّ مَا أَنْبَتَ الرَّبِيعُ**[٢]

---

(١) خَضرَةٌ حُلْوَةٌ : حسنة مونقة في الجمال كالخضرة .

(٢) الرَّبِيعُ : الجدول الذي يجري فيه الماء .

يَقْتُلُ حَبَطًا [١] أَوْ يُلِمُّ [٢] إِلاَّ آكِلَةَ الْخَضِرَةِ [٣] أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا [٤] اسْتَقْبَلَتْ الشَّمْسَ فَاجْتَرَّتْ [٥] وَثَلَطَتْ [٦] وَبَالَتْ ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ حُلْوَةٌ مَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ [٧].

وهذا مثال للدنيا وأهلها ، فمثل المستكثر منها كالماشية التي تأكل فوق قدرها ، فإن استطاعت أن تخرج ما زاد عنها بالاجترار وتنعيمه ، ليخرج سائلا ، وإلا بقي في بطنها فأصابها الانتفاخ فقتلها .

وقد قيل إن في قلة الأكل منافع كثيرة : منها أن يكون الرجل أصح جسماً ، وأجود حفظاً ، وأزكى فهماً ، وأقل نوماً ، وأخفّ نفساً ، وفي كثرة الأكل كظّ المعدة ، ونتن التخمة ، ويتولد منه الأمراض المختلفة ، فيحتاج من العلاج أكثر مما يحتاج إليه القليل الأكل ، وقال بعض الحكماء : أكبر الدواء تقدير الغذاء .

قال ابن عباس : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ في الطعام والشراب[٨].

قال ابن كثير : قال بعض السَّلف : جمـع الله الطب كُلَّه في نصف آية

(١) حَبَطًا : بانتفخ البطن من كثرة الأكل .

(٢) يُلِمُّ : يقارب من الهلاك .

(٣) آكِلَةُ الْخَضِرَةِ : الماشية التي تأكل العشب الأخضر .

(٤) خَاصِرَتَاهَا : جانبا البطن من الحيوان .

(٥) اجْتَرَّتْ : من الاجترار وهو إرجاع ما أدخلته في بطنها لإعادة مضغه .

(٦) ثَلَطَتْ : ألقت ما في بطنها رقيقا .

(٧) البخاري : (٦٤٢٧) ، مسلم : (١٠٥٢) .

(٨) الطبري (عند ذكر الآية) .

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾[(١)].

وقد صح : عن النَّبيِّ ﷺ مِنْ طَرِيق عَمْرو بْن شُعَيْب عَنْ أَبيه عَنْ جَدِّه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((**كُلُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَة**))[(٢)].

قال الحليمي رحمه الله : وكل طعام حلال فلا ينبغي لأحد أن يأكل منه ما يثقل بدنه فيحوجه إلى النوم ، ويمنعه من العبادة ، وليأكل بقدر ما يسكن جوعه ، وليكن غرضه من الأكل أن يشتغل بالعبادة ويقوى عليها[(٣)].

وقال أيضاً : ولا يجمع في الأكلة الواحدة بين الألوان الكثيرة بذخا وأشرا ، إلا أن يجمع جامع بين شيئين أو أشياء ليعدل بعض ذلك ببعض ، فيوافق طبعه ويأمن بذلك الغائلة التي كان يخشاها من أحدهما لو أفرده[(٤)].

فأهل الإيمان يتزودون في الدنيا قدر حاجة المسافر ليتعجلوا الوصول إلى النعيم الأبدي والبقاء السرمدي ، أما الكفار فقد انقطعت بهم السبل ، فلا أمنية إلا ما عُجل لهم في هذه الحياة .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ [محمد : ١٢]

ولذلك حُرموا طيبات الآخرة ، وأفنوا لذاتهم في حياتهم الدنيا ، ولم يدخروا للآخرة شيئا .

---

(١) عند ذكر الآية) .

(٢) حسن : النسائي (٢٥١٢) ، ابن ماجة (٣٦٠٥) ، أحمد (٦٦٥٦) ، وقد علقه البخاري بصيغ الجزم .

(٣) البيهقي (شعب الإيمان : ٢٢/٥) .

(٤) البيهقي (شعب الإيمان : (٣٦/٥) .

كما قال تعالى: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ [الأحقاف : ٢٠]

قال الحليمي رحمه الله : وهذا الوعيد من الله تعالى وإن كان للكفار الذين يقدمون على الطيبات المحظورة ، ولذلك قال ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ فقد يحسن مثله على المنهمكين في الطيبات المباحة ، لأن من تعودها مالت نفسه إلى الدنيا فلم يؤمن أن يرتكب في الشهوات والملاذ ، وكلما أجاب نفسه إلى واحدة منها دعته إلى غيرها ، فيصير إلى أن لا يمكنه عصيان نفسه في هوى قط ، وينسد باب العبادة دونه ، فإذا آل الأمر به إلى هذا لم يبعد أن يقال ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ فلا ينبغي أن تعوَّد النفس ما يميل بها إلى الشره ثم يصعب تداركها ،ولترض من أول الأمر على السداد ، فإن ذلك أهون من أن تُعَوَّدَ على الفساد ، ثم يجتهد في إعادتها إلى الصلاح[1].

حال بيت النبوة

واعلم أخي الحبيب أن الطريق إلى الله ﷻ بابه العبادة ، والقربة ، والطاعة ، ولا يكون ذلك إلا بسلامة البدن ، ولا يستقيم لك البدن إلا بتناول الطعام والشراب بقدر الحاجة على مر الأوقات . ولا بد أن تختار طعاما طيبا حلالا ، على قدر حاجتك لا يؤذيك ولا يُعَنِّيك ، قال تعالى : ﴿ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَات وَاعْمَلُوا صَالِحاً ﴾ [المؤمنون : ٥]

فنظم طعامك وشرابك ، واجعله زاداً يقربك من ربك ومولاك ، وإياك أن تُحَمِّل بطنك ما لا تطيق ؛ فإنه ثقل على القلب ، وسموم بالبدن .

---

(١) البيهقي (شعب الإيمان : ٣٥/٥) .

وشهوة البطن إن لم تكن منضبطة بميزان من شرع كباقي العبادات من إقدام وإحجام ، فيرفع اللقمة بميزان من الشرع ، ويخفضها بميزان من الشرع . فمن استرسل في الطعام والشراب بدون ضابط من شرع ، فحاله كحال من قال الله فيهم : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ** ﴾ [محمد : ١٢]

والذي ينظر إلى بيت النبوة يرى الحالة التي كانوا عليها من قلة عيش ، ونقص من الدنيا ، ورغم ذلك كانوا من أسعد خلق الله ، وأهنئهم عيشا .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ بُرٍّ ثَلاثَ لَيَالٍ تِبَاعًا حَتَّى قُبِضَ [(١)].

عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ : ابْنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلالِ ثَلاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ ، فَقُلْتُ : مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ قَالَتْ : الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ إِلاَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنْ الأَنْصَارِ كَانَ لَهُمْ مَنَائِحُ وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَبْيَاتِهِمْ فَيَسْقِينَاهُ[(٢)].

وبعد أن فتح الله عليهم لم تتعلق قلوبهم بالدنيا ولا مالت إليها.وإليك هذه الأحاديث :

عَنْ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : كَانَتْ عَائِشَةَ تَقْسِمُ سَبْعِينَ أَلْفاً ، وَهِيَ تَرْقَعُ دِرْعَهَا[(٣)].

---

(١) البخاري : (٦٤٥٤) ، مسلم : (٢٩٧٠) .

(٢) البخاري : (٦٤٥٩) ، مسلم : (٢٩٧٢) .

(٣) ابن أبي شيبة (المصنف : ٧/٣٤٧٤٠) .

وَعَنْ أُمِّ دَرَّةَ قَالَتْ : أُتِيَتْ عَائِشَةُ بِمِائَةِ أَلْفٍ فَفَرَّقَتْهَا وَهِيَ يَوْمَئِذٍ صَائِمَةٌ ، فَقُلْتُ لَهَا : أَمَا اسْتَطَعْتِ فِيمَا أَنْفَقْتِ أَنْ تَشْتَرِيَ بِدِرْهَمٍ لَحْمًا تُفْطِرِينَ عَلَيهِ ، فَقَالَتْ : لَوْ كُنْتِ ذَكَّرْتِنِي لَفَعَلْتُ[١].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّهُ مَشَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِخُبْزِ شَعِيرٍ وَإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ ، وَلَقَدْ رَهَنَ النَّبِيُّ ﷺ دِرْعًا لَهُ بِالْمَدِينَةِ عِنْدَ يَهُودِيٍّ ؛ وَأَخَذَ مِنْهُ شَعِيرًا لأَهْلِهِ ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ : مَا أَمْسَى عِنْدَ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ صَاعُ بُرٍّ وَلاَ صَاعُ حَبٍّ ؛ وَإِنَّ عِنْدَهُ لَتِسْعَ نِسْوَةٍ[٢].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : مَا عَلِمْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَكَلَ عَلَى سُكْرُجَةٍ قَطُّ ، وَلاَ خُبِزَ لَهُ مُرَقَّقٌ قَطُّ ، وَلاَ أَكَلَ عَلَى خِوَانٍ قَطُّ ، قِيلَ لِقَتَادَةَ : فَعَلاَمَ كَانُوا يَأْكُلُونَ قَالَ : عَلَى السُّفَرِ[٣].

وعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : أَلَسْتُمْ فِي طَعَامٍ وَشَرَابٍ مَا شِئْتُمْ ، لَقَدْ رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ وَمَا يَجِدُ مِنْ الدَّقَلِ[٤] مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ[٥].

وعَنْ قَتَادَةَ قَالَ : كُنَّا نَأْتِي أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ وَخَبَّازُهُ قَائِمٌ وَقَالَ : كُلُوا فَمَا أَعْلَمُ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَغِيفًا مُرَقَّقًا حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ وَلاَ رَأَى شَاةً سَمِيطًا[٦] بِعَيْنِهِ قَطُّ[٧].

---

(١) الإصابة (٨/ ٢٠) .

(٢) البخاري : (٢٠٦٩) .

(٣) البخاري : (٥٣٨٦) .

(٤) الدَّقَل : التمر الرديء اليابس .

(٥) مسلم : (٢٩٧٧) .

(٦) سَمِيطًا : تغمس في الماء الحار لإزالة ما على الجلد من شعر .

(٧) البخاري : (٦٤٥٧) .

وعَنْ **عُبَيْد بْن السَّبَّاق قَالَ** : إنَّ جُوَيْرِيَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَقَالَ : « **هَلْ منْ طَعَام** » قَالَتْ : لاَ وَاللَّه يَا رَسُولَ اللَّه مَا عنْدَنَا طَعَامٌ إلاَّ عَظْمٌ منْ شَاة أُعْطِيَتْهُ مَوْلاَتي منَ الصَّدَقَة ، فَقَالَ : « **قَرِّبِيه فَقَدْ بَلَغَتْ مَحلَّهَا** »[1].

وربما رئي أثر الجوع في وجه رسول الله ﷺ ، فيبدو واضحا عليه يعرفه به أصحابه ﷺ .

عَنْ أَبِي مَسْعُود قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ منَ الأَنْصَار يُكْنَى أَبَا شُعَيْب ، فَقَالَ لغُلاَم لَهُ قَصَّاب : اجْعَلْ لي طَعَامًا يَكْفي خَمْسَةً ، فَإنِّي أُريدُ أَنْ أَدْعُوَ النَّبيَّ ﷺ خَامسَ خَمْسَة ، فَإنِّي قَدْ عَرَفْتُ في وَجْهه الْجُوعَ ، فَدَعَاهُمْ فَجَاءَ مَعَهُمْ رَجُلٌ فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ : « **إنَّ هَذَا قَدْ تَبعَنَا فَإنْ شئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لَهُ فَأْذَنْ لَهُ وَإنْ شئْتَ أَنْ يَرْجعَ رَجَعَ** » ، فَقَالَ : لاَ بَلْ قَدْ أَذنْتُ لَهُ[2].

عَنْ أَنَس بْن مَالك قَالَ : قَالَ أَبُو طَلْحَةَ لأُمِّ سُلَيْم : لَقَدْ سَمعْتُ صَوْتَ رَسُول اللَّه ﷺ ضَعيفًا أَعْرفُ فيه الْجُوعَ ؛ فَهَلْ عنْدَك منْ شَيْء ، قَالَتْ : نَعَمْ فَأَخْرَجَتْ أَقْرَاصًا منْ شَعير ، ثُمَّ أَخْرَجَتْ خمَارًا لَهَا ؛ فَلَفَّتْ الْخُبْزَ ببَعْضه ، ثُمَّ دَسَّتْهُ تَحْتَ يَدي وَلاثَتْني ببَعْضه ، ثُمَّ أَرْسَلَتْني إلَى رَسُول اللَّه ﷺ قَالَ : فَذَهَبْتُ به فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ في الْمَسْجد وَمَعَهُ النَّاسُ ، فَقُمْتُ عَلَيْهمْ ، فَقَالَ لي رَسُولُ اللَّه ﷺ : « **آرْسَلَكَ أَبُو طَلْحَةَ** » ، فَقُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : « **بطَعَام** » ، فَقُلْتُ : نَعَمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ لمَنْ مَعَــهُ : « **قُومُوا** » فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْديهمْ حَتَّى جئْتُ أَبَا طَلْحَةَ فَأَخْبَرْتُهُ . فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : يَا أُمَّ سُلَيْمٍ قَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بالنَّاس وَلَيْسَ عنْدَنَا مَا

(١) مسلم : (١٠١٥) .

(٢) البخاري : (٢٠٨١) ، مسلم : (٢٠٣٦) .

نُطْعِمُهُمْ . فَقَالَتْ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَانْطَلَقَ أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ اللَّه ﷺ ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَأَبُو طَلْحَةَ مَعَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « **هَلُمِّي يَا أُمَّ سُلَيْم مَا عِنْدَكِ ؟** » فَأَتَتْ بِذَلِكَ الْخُبْزِ ، فَأَمَرَ بِه رَسُولُ اللَّه ﷺ فَفُتَّ ، وَعَصَرَتْ أُمُّ سُلَيْم عُكَّةً فَأَدَمَتْهُ ؛ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « **فِيه مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ** » ، ثُمَّ قَالَ : « **ائْذَنْ لِعَشَرَة** » ، فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا ثُمَّ قَالَ : « **ائْذَنْ لِعَشَرَة** » فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا ثُمَّ قَالَ : « **ائْذَنْ لِعَشَرَة** » ، فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا ثُمَّ قَالَ : « **ائْذَنْ لِعَشَرَة** » فَأَكَلَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا ، وَالْقَوْمُ سَبْعُونَ أَوْ ثَمَانُونَ رَجُلاً[1].

حال الصحابة رضي الله عنهم

وكذلك كان حال الصحابة رضي الله عنهم من قلة عيش وزهد ، وعدم شره على الحياة ، أخذوا منها ما يبلغهم الدار الآخرة ، وعلموا أن ما عند الله خير .

النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنهما وعمر

انظر كيف اتفقوا على حالة واحدة ! خرجوا جميعا ، فلما سألهم النبي ﷺ عن سبب الخروج ، فإذا هو قد وافق ما عنده ﷺ ، الجوع !

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّه ﷺ ذَاتَ يَوْم أَوْ لَيْلَة فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْر وَعُمَرَ فَقَالَ : « **مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتكُمَا هَذه السَّاعَةَ** » ، قَالاَ : الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّه قَالَ : « **وَأَنَا وَالَّذي نَفْسي بِيَده لأَخْرَجَني الَّذي أَخْرَجَكُمَا ، قُومُوا** » ، فَقَامُوا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصَار فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْته فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ : مَرْحَبًا وَأَهْلاً ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ : « **أَيْنَ**

(١) البخاري : (٣٥٧٨) ، مسلم : (٢٠٤٠) .

فُلاَنٌ))، قَالَتْ : ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنْ الْمَاء . إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ وَصَاحِبَيْهِ ثُمَّ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّه مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي . قَالَ : فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ[١] فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ ، فَقَالَ : كُلُوا مِنْ هَذِه ، وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ : ((**إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ**)) ، فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنْ الشَّاة وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْق وَشَرِبُوا ، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا ، قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ : ((**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيم يَوْمَ الْقِيَامَة ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ الْجُوعُ ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ**))[٢].

عمـــر رضي الله عنه

رفض أن يخالف صاحبيه على الحالة التي كانا عليها ، وظل على العهد ، حتى قُبِضَ رضي الله عنه ، وربما كلمه البعض أن يوسع على نفسه بعد أن فتحت الدنيا ، فيأبى رضي الله عنه .

ومنه : أَنَّ حَفْصَةَ وَابْنَ مُطِيع وعَبْدَ الله بنَ عُمَر كَلَّمُوا عُمَرَ بنَ الخَطَّاب فَقَالُوا : لَوْ أَكَلْتَ طَعَاماً طَيِّباً كَانَ أَقْوَى لَكَ عَلَى الحَق ، قَالَ : أَكُلكم عَلَى هَذَا الرَّأْي ، قَالُوا : نَعَم قَالَ : قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَيس مِنْكُم إِلاَّ نَاصح ، وَلَكِنِّي تَرَكْتُ صَاحِبَيَّ يَعْنِي رَسُولَ الله ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ عَلَى جَادَّة فَإِنْ تَرَكْتُ جَادَّتَهُما لَمْ أُدْرِكهما فِي الْمَنْزِل[٣].

---

(١) عِذْق : العرجون وهو من النخل كالعنقود من العنب .

(٢) مسلم : (٢٠٣٨) .

(٣) البيهقي (شعب الإيمان : ٥/٥٦٧٥) .

أبو طلحة الأنصاري

وكان من أغنى الأنصار مالا ، وله مواقف كثيرة تدل على شرف نفسه ، وعلو همته منها ما نُسب إليه من هذه القصة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ مَا مَعَنَا إِلاَّ الْمَاءُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((**مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا**)) فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ : أَنَا فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ فَقَالَ : أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . فَقَالَتْ : مَا عِنْدَنَا إِلاَّ قُوتُ صِبْيَانِي . فَقَالَ : هَيِّئِي طَعَامَكِ وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً . فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا ، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا ، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا ، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ ، فَجَعَلاَ يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلاَنِ ؛ فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : ((ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ ، أَوْ عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [1] [الحشر : ٩]

سعد بن أبي وقاص

عَنْ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ إِنِّي لأَوَّلُ الْعَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَرَأَيْتُنَا نَغْزُو وَمَا لَنَا طَعَامٌ إِلاَّ وَرَقُ الْحُبْلَةِ [2] وَهَذَا السَّمُرُ ، وَإِنَّ أَحَدَنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ ، مَا لَهُ خَلْطٌ ، ثُمَّ أَصْبَحَتْ بَنُو أَسَدٍ تُعَزِّرُنِي عَلَى الإِسْلاَمِ ؛ خِبْتُ إِذاً وَضَلَّ سَعْيِي[3].

---

(١) البخاري : (٣٧٩٨) ، مسلم : (٢٠٥٤) .

(٢) الْحُبْلَة ثمرة فصيلة القطانيات كالفول والعدس والفاصوليا والعدس وغيرها . د عابد

(٣) البخاري : (٦٤٥٣) ، مسلم : (٢٩٦٦) .

أبو هريرة ﷺ

وهذا أبو هريرة ﷺ يصف الحالة التي كان عليها ....

فكَانَ يَقُولُ : أَاللَّه الَّذي لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ إنْ كُنْتُ لأَعْتَمدُ بكَبدي عَلَى الأَرْض منَ الْجُوع ، وَإنْ كُنْتُ لأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْني منَ الْجُوع ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَريقهمْ الَّذي يَخْرُجُونَ منْهُ . فَمَرَّ أَبُو بَكْر فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَة منْ كتَاب اللَّه ؛ مَا سَأَلْتُهُ إلاَّ ليُشْبعَني ، فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ . ثُمَّ مَرَّ بي عُمَرُ ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَة منْ كتَاب اللَّه ؛ مَا سَأَلْتُهُ إلاَّ ليُشْبعَني ، فَمَرَّ فَلَمْ يَفْعَلْ . ثُمَّ مَرَّ بي أَبُو الْقَاسم ﷺ فَتَبَسَّمَ حينَ رَآني ، وَعَرَفَ مَا في نَفْسي ، وَمَا في وَجْهي ، ثُمَّ قَالَ : ((**يَا أَبَا هرٍّ**)) ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّه ، قَالَ : ((**الْحَقْ**)) وَمَضَى فَتَبعْتُهُ ، فَدَخَلَ فَاسْتَأْذَنَ فَأَذنَ لي ، فَدَخَلَ فَوَجَدَ لَبَنًا في قَدَح ؛ فَقَالَ : ((**منْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ**)) قَالُوا : أَهْدَاهُ لَكَ فُلاَنٌ أَوْ فُلاَنَةُ قَالَ : ((**أَبَا هرٍّ**)) ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّه قَالَ : ((**الْحَقْ إلَى أَهْل الصُّفَّة فَادْعُهُمْ لي**)) ، قَالَ : وَأَهْلُ الصُّفَّة أَضْيَافُ الإسْلاَم ، لاَ يَأْوُونَ إلَى أَهْل وَلاَ مَال وَلاَ عَلَى أَحَد ، إذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بهَا إلَيْهمْ وَلَمْ يَتَنَاوَلْ منْهَا شَيْئًا ، وَإذَا أَتَتْهُ هَديَّةٌ أَرْسَلَ إلَيْهمْ ، وَأَصَابَ منْهَا ، وَأَشْرَكَهُمْ فيهَا ؛ فَسَاءَني ذَلكَ . فَقُلْتُ : وَمَا هَذَا اللَّبَنُ في أَهْل الصُّفَّة كُنْتُ أَحَقُّ أَنَا أَنْ أُصيبَ منْ هَذَا اللَّبَن شَرْبَةً أَتَقَوَّى بهَا ، فَإذَا جَاءَ أَمَرَني فَكُنْتُ أَنَا أُعْطيهمْ ، وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَني منْ هَذَا اللَّبَن . وَلَمْ يَكُنْ منْ طَاعَة اللَّه وَطَاعَة رَسُوله ﷺ بُدٌّ . فَأَتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ فَأَقْبَلُوا فَاسْتَأْذَنُوا فَأَذنَ لَهُمْ وَأَخَذُوا مَجَالسَهُمْ منَ الْبَيْت . قَالَ : ((**يَا أَبَا هرٍّ**)) : قُلْتُ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّه قَالَ : ((**خُذْ فَأَعْطهمْ**)) قَالَ : فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ فَجَعَلْتُ أُعْطيه الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ ، فَأُعْطيه الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى ، ثُمَّ

يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ رَوِيَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ ؛ فَأَخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَده فَنَظَرَ إِلَيَّ فَتَبَسَّمَ فَقَالَ : ((**أَبَا هِرٍّ**)) ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّه قَالَ : ((**بَقِيتُ أَنَا وَأَنْتَ**)) ، قُلْتُ : صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّه ، قَالَ : ((**اقْعُدْ فَاشْرَبْ**)) ؛ فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ ، فَقَالَ : ((**اشْرَبْ**)) ، فَشَرِبْتُ ، فَمَا زَالَ يَقُولُ اشْرَبْ ، حَتَّى قُلْتُ : لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا ، قَالَ : ((**فَأَرِنِي فَأَعْطَيْتُهُ الْقَدَحَ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَسَمَّى وَشَرِبَ الْفَضْلَةَ**))[1].

وهذا حاله بعد أن فتحت الدنيا عليهم ﷺ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ[2] فَدَعَوْهُ فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ ، وَقَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ[3].

أبو عبيدة وسريته ﷺ

عَنْ جَابِرٍ قَالَ : بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ وَأَمَّرَ عَلَيْنَا أَبَا عُبَيْدَةَ نَتَلَقَّى عِيرًا لِقُرَيْشٍ ؛ وَزَوَّدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ . فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً . قَالَ : فَقُلْتُ : كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا . قَالَ : نَمَصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ فَتَكْفِينَا يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ ، وَكُنَّا نَضْرِبُ بِعِصِيِّنَا الْخَبَطَ[4] ثُمَّ نَبُلُّهُ بِالْمَاءِ فَنَأْكُلُهُ ، قَالَ : وَانْطَلَقْنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ فَرُفِعَ لَنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ كَهَيْئَةِ الْكَثِيبِ[5] الضَّخْمِ ؛ فَأَتَيْنَاهُ فَإِذَا هِيَ دَابَّةٌ تُدْعَى الْعَنْبَرَ ، قَالَ : قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : مَيْتَةٌ . ثُمَّ قَالَ : لَا ، بَلْ نَحْنُ رُسُلُ

---

(١) البخاري : (٦٤٥٢) .

(٢) **مَصْلِيَّةٌ** : مشوية في النار .

(٣) البخاري : (٥٤١٤) .

(٤) **الْخَبَطَ** : ما سقط من ورق الشجر .

(٥) **الْكَثِيب** : ما ارتفع من الرمل المتجمع .

رَسُول اللَّه ﷺ ، وَفي سَبيل اللَّه ، وَقَدْ اضْطُررْتُمْ فكُلُوا ، قَالَ : فَأَقَمْنَا عَلَيْه شَهْرًا وَنَحْنُ ثَلاثُ مائَة حَتَّى سَمنَّا ، قَالَ : وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا نَغْتَرِفُ منْ وَقْب عَيْنه[١] بالْقلاَل الدُّهْنَ وَنَقْتَطعُ منْهُ الْفدَرَ[٢] كَالثَّوْر أَوْ كَقَدْر الثَّوْر ، فَلَقَدْ أَخَذَ منَّا أَبُو عُبَيْدَةَ ثَلاثَةَ عَشَرَ رَجُلاً فَأَقْعَدَهُمْ في وَقْب عَيْنه ، وَأَخَذَ ضلَعًا منْ أَضْلاَعه فَأَقَامَهَا ، ثُمَّ رَحَلَ أَعْظَمَ بَعير مَعَنَا فَمَرَّ منْ تَحْتهَا . وَتَزَوَّدْنَا منْ لَحْمه وَشَائقَ[٣] فَلَمَّا قَدمْنَا الْمَدينَةَ أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّه ﷺ فَذَكَرْنَا ذَلكَ لَهُ ، فَقَالَ : هُوَ رزْقٌ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ . فَهَلْ مَعَكُمْ منْ لَحْمه شَيْءٌ فَتُطْعمُونَا ؛ قَالَ : فَأَرْسَلْنَا إلَى رَسُول اللَّه ﷺ منْهُ فَأَكَلَهُ[٤].

عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه

أُتيَ عَبْدَ الرَّحْمَن بْنَ عَوْف رضي الله عنه بطَعَام وَكَانَ صَائمًا فَقَالَ : قُتلَ مُصْعَبُ ابْنُ عُمَيْر وَهُوَ خَيْرٌ منِّي ، كُفِّنَ في بُرْدَة إنْ غُطِّيَ رَأْسُهُ بَدَتْ رجْلاَهُ ، وَإنْ غُطِّيَ رجْلاَهُ بَدَا رَأْسُهُ ، وَأُرَاهُ قَالَ : وَقُتلَ حَمْزَةُ ، وَهُوَ خَيْرٌ منِّي ، ثُمَّ بُسطَ لَنَا منْ الدُّنْيَا مَا بُسطَ ، أَوْ قَالَ : أُعْطينَا منْ الدُّنْيَا مَا أُعْطينَا ، وَقَدْ خَشينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ لَنَا ؛ ثُمَّ جَعَلَ يَبْكي حَتَّى تَرَكَ الطَّعَامَ[٥].

أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها

عَنْ أَسْمَاءَ بنْت أَبي بَكْر رَضي اللهُ عَنْهُمَا قَالَتْ : كُنْتُ مَرَّةً في أَرْض أَقْطَعَهَا النَّبيُّ ﷺ لأَبي سَلَمَةَ وَالزُّبَيْر في أَرْض بَني النَّضير . فَخَرَجَ الزُّبَيْرُ مَعَ

---

(١) **وَقْب عَيْنه** : جوف عينه .
(٢) **الْفدَرَ** : القطعة المجتمعة من اللحم وغيره .
(٣) **وَشَائق** : اللحم يوضع على النار ولا ينضج ويؤخذ في السفر .
(٤) **مسلم** : (١٩٣٥) ، وهو في البخاري (٢٤٨٣) .
(٥) **البخاري** : (١٢٧٥) .

رَسُول اللَّه ﷺ ، وَلَنَا جَارٌ منَ اليَهُود ، فَذَبَحَ شَاةً فَطُبخَت ، فَوَجَدْتُ رِيحَهَا ، فَدَخَلَنِي مَا لَمْ يَدْخُلْني منْ شَيء قَطُّ ، وَأَنَا حَاملٌ بابْنَتِي خَديجَة ، فَلَمْ أَصْبر ؛ فَانْطَلَقْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى امْرَأَة اليَهُودي أَقْتَبسُ منْهَا نَاراً لَعَلَّهَا تُطْعمُني ، وَمَا بي منْ حَاجَة إلى النَّار ، فَلَمَّا شَمَمْتُ الريحَ وَرَأَيْتُه ازدَدَتُ شَرَهَاً ، فَأَطْفَأْتُهُ ، ثُم جئْتُ ثَانياً أَقْتَبسُ ، ثُمَّ ثَالثَة ، ثُمَّ قَعَدْتُ أَبْكي وَأَدْعُو الله ، فَجَاءَ زَوْجُ اليَهُودية فَقَالَ : أَدَخَلَ عَلَيْكُم أَحَد ؟ قَالَتْ : العَرَبيةُ تَقْتَبسُ نَاراً ، قَالَ : فَلا آكُلُ منْهَا أَبَداً ، أَوْ تُرْسلي إلَيْهَا منْهَا ، فَأَرْسَلَ إلَيَّ بقَدَحة - يَعْني غَرْفة - فَلَمْ يَكُنْ شَيء في الأَرْضِ أَعْجَبُ إلَيَّ منْ تلْكَ الأُكْلَة[١].

وهذا حال بعض الصحابة إذا استيقظ ولم يجد طعاما

قال البخاري رحمه الله : بَاب إذَا نَوَى بالنَّهَار صَوْمًا وَقَالَتْ أُمُّ الدَّرْدَاء : كَانَ أَبُو الدَّرْدَاء يَقُولُ : عنْدَكُمْ طَعَامٌ ، فَإنْ قُلْنَا لَا ، قَالَ : فَإنِّي صَائمٌ يَوْمي هَذَا . وَفَعَلَهُ أَبُو طَلْحَةَ ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ ، وَحُذَيْفَةُ ﷺ[٢].

الفرق بين طعام المؤمن والكافر

وقد بين النبي ﷺ حال المؤمن والكافر بالنسبة للطعام : فإن المؤمن قليل الطعام ، يتزود تزود مسافر ليلحق بأهله ، بينما الكافر لا همّ له إلا أن يقضي من الدنيا وطره ويتم شهوته ، ويستمتع منها بكل ما وصلت يداه من حل أو حرام ، فلا ضابط له ، إن أكل لا يُبْقي ولا يذر ، وإن وجد متعة لا يدعها حتى يُفرغ منها نفسه ، همه لذة حاضرة ، ومتعة عاجلة .

---

(١) رواه الطبراني (الكبير ٢٤/٢٧٨) من طريق ابن لهيعة وفيه كلام وذكرها الحافظ في (الإصابة ٧/ ٦٠٥) .

(٢) **البخاري** : (كتاب الصيام باب : ٢١) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلاً كَانَ يَأْكُلُ أَكْلاً كَثِيرًا ، فَأَسْلَمَ فَكَانَ يَأْكُلُ أَكْلاً قَلِيلاً ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : ((**إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ ، وَالْكَافِرَ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ**))(١).

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ لاَ يَأْكُلُ حَتَّى يُؤْتَى بِمِسْكِينٍ يَأْكُلُ مَعَهُ ، فَأَدْخَلْتُ رَجُلاً يَأْكُلُ مَعَهُ ، فَأَكَلَ كَثِيرًا فَقَالَ : يَا نَافِعُ لاَ تُدْخِلْ هَذَا عَلَيَّ ؛ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : ((**الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ**))(٢).

المؤمن منضبط بميزان شرع ، يعلم أن متعه في الحياة لا تحقق له اللذة المرجوة ، والسعادة المنشودة ، وإن تحقق منها شيء فهو على حساب الآخرة ، فرضي من الدنيا بما يبلغه الآخرة .

فاحتساب الطعام ليتقوى به العبد على طاعة **الله** ﷻ عبادة ، ومداعبة الزوجة لاستمرار الألف عبادة ، وقضاء الشهوة في حلال لاستفراغ القلب لله عبادة ، هذا بخلاف الكافر ؛ يأكل أكل الأنعام ، لا هم له إلا تحصيل المتعة من حل أو حرام ، قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ** ﴾ [محمد : ١٢]

وقد بين النبي ﷺ خطورة التشاغل بالبطن ، وضياع العمر في ملئها وإفراغها.

عَنْ مِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((**مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ . بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**))(٣).

---

(١) البخاري : (٥٣٩٧) ، مسلم : (٢٠٦٣) .

(٢) البخاري : (٥٣٩٣) ، مسلم : (٢٠٦٠) .

(٣) **صحيح** : الترمذي (٢٣٨٠) ، ابن ماجة (٣٣٤٩) ، أحمد (١٦٧٣٥) .

وهذا حال بعض السلف مع الطعام

علي بن أبي طالب

ورُوي عن علي أنه كان له سَوِيق[١] في إناء مختوم فأخرج منها فصب في القدح فصب عليه ماء فشرب فقيل له يا أمير المؤمنين أتصنع هذا بالعراق ، وطعام العراق أكثر من ذلك ، قال : أما والله ما أختم عليه بخلا عليه ، ولكني أبتاع قدر ما يكفيني ، فأخاف أن يفنى فيصنع من غيره ، وإنما حفظي لذلك ، وأكره أن أدخل بطني إلا طيبا[٢].

عمر بن عبد العزيز

قيل له ألا نصنع لك دواء يشهيك الطعام ؟

فقال : وما أصنع به ؟ فوالله إني لأدخل المخرج فيؤذيني ما يخرج مني .

وقيل له : أفلا نصنع لك دواء يشهيك النساء ؟

فقال : وما أصنع به ؟ فوالله لربما كان ذلك يأتيني فأجد غفلة وشِرَّة[٣].

الحسن البصري

قال والله لأن ينبذ رجل طعامه للكلب ، خير له من أن يأكل فوق شبعه[٤].

وقال أيضا : إن المؤمن يصبح حزيناً ويمسي حزيناً ، ويكفيه ما يكفي العنيزة[٥].

وقال أيضا : لقد كان المسلم يعار أن يقال له إنك لبطين ![٦].

---

(١) السَّوِيق : طعام يتخذ من مدقوق القمح و الشعير .

(٢) أبو نعيم (الحلية : ٨٢/١) .

(٣) ابن أبي الدنيا (الجوع : ٨٩) .

(٤) أبو نعيم (حلية : ٢٧٠/٦) .

(٥) ابن أبي شيبة (المصنف : ٣٥٢٠٢) .

(٦) ابن أبي الدنيا (الجوع : ٨٢) .

داود الطائي

قيل له يا أبا سليمان : أما تشتهي الخبز قال بلى ! ولكن بين مضغ الخبز وبين شرب الفتيت ، قراءة خمسين آية[١].

السَّري السَّقَطي

كان يحمل سويق الشعير ، فيسف منها ، فقيل له : ما دعاك إلى هذا ، قال : إني حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف ، سبعين تسبيحة ، فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة[٢].

سفيان بن عيينة

عن أبي يوسف الصولي قال : دخلت على سفيان بن عيينة في مرضه الذي مات فيه ، فدعا ابن عيينة بشعيرٍ فقال : يا أبا يوسف دع ما يقول الناس ، هذا طعامي منذ ثلاثين سنة[٣].

أيوب السختياني

قال : كثرة الأكل داء البطن ، وزيادة في النتن[٤].

الأعمش

قال لرجل : يا أحمق ، ترى هذا البطن ؟ إن أهنته أكرمك ، وإن أكرمته أهانك ![٥].

---

(١) البيهقي (شعب الإيمان : ٥|٥٦٩٤) .
(٢) أبو نعيم (الحلية : ١٠/١١٠) .
(٣) البيهقي (شعب الإيمان : ٥|٥٧٠٨) .
(٤) ابن أبي الدنيا (الجوع : ٨٨) .
(٥) ابن أبي الدنيا (الجوع : ٩٦) .

سفيان الثوري

عن عبد الرزاق قال : قدم علينا سفيان الثوري صنعاء ، وطبخت له قِدْرَ سِكْباج[١] فأكل ثم أتيته بزبيب الطائف فأكل ثم قال : يا عبد الرزاق أعلف الحمار وكدَّه[٢] ثم قام يصلي[٣].

وأكل مرة فشبع ، فقال : إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله ، فقام حتى أصبح[٤].

وكان **سفيان الثوري** يتمثل بهذه الأبيات :[٥].

سَيَكْفيكَ عَمَّا أُغْلقَ البَابُ دُونَهُ ... وَضَنَّ به الأَقْوَامُ مِلْحٌ وَجَـرْدَق

وَتَشْرَبُ مِنْ مَاءِ فُرَاتٍ وَتَغْتَدى ... تُعَارِضُ أَصْحَابَ الثَّرِيد الْمُلَبَّـق

تَجَشَّى إذَا مَا هُمْ تَجَشَّوا كَأَنَّمَا ... ظَلَلْتَ بِأَنْـوَاعِ الخَبِيصِ تفتَّـق

ولعبد الله بن المبارك :[٦]

كُـلْ مِنَ الجَـارُوش[٧] ... وَالآرُزِّ وَمِنْ خُبْزِ الشَّعِير

وَاجْعَلَـنْ ذَاكَ حَـلاَلاً ... تَنْجُ مِنْ نَـارِ السَّعِـير

وَالتَمِسْ رِزْقَـكَ مِـنْ ... ذي العَرْشِ وَالرَّبِّ القَدير

وَارْضَ يَا وَيْحَـكَ مِنْ ... دُنْيَاكَ بالقُـوتِ اليَسِير

إنَّهـا دَارُ بَـلاءٍ ... وَزَوَالٍ وَغُـرُور

---

(١) سِكْباج : نوع من الطعام ممزوج بالخل ، مشهور عند العرب .

(٢) كدَّه : اشدد عليه في العمل وأرهقه .

(٣) برهان الدين ابن مفلح (المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد : ٤٥٢) .

(٤) البيهقي (شعب الإيمان : ٣/٣٢٣٤) .

(٥) أبو نعيم (الحلية : ٦/٣٧٣) .

(٦) ابن عساكر (تاريخ دمشق : ٣٢/٤٦٤) .

(٧) الجاروش : الدقيق الخشن .

كَــمْ لَعَمْرِي صَرَعَتْ قَبْلَكَ أَصْحَابَ الْقُبُــور
وَذِي الهَيْـــئَةِ فِـــي الْمَجْلِسِ وَالْجَمْعِ الْكَثِير
أُخْرِجُــوا مِنْهَـــا فَمَـــا كَانَ لَدَيْهِم مِنْ نَكِـــير
كَـــمْ بِبَطْنِ الأَرْضِ ثَاوٍ مِـــنْ شَرِيفٍ وَوَزِيــر
وَصَـــغِيرِ الشَّأنِ عَبْـــدٍ خَامِلِ الذِّكْـــرِ حَقِـــير
لَـــوْ تَصَفَّحْتَ قُبُـــوراً الْقَـــوْمِ فِي يَوْمٍ بَصِـــير
لَـــمْ تُمَيِّزْهُـــمْ وَلَـــمْ تَعْرِفْ غَنِياً مِنْ فَقِـــير
خَمَـــدُوا فَالْقَـــوْمُ صَرْعَى تَحْتَ أَشْقَاقِ الصُّخُور
اسْتَوَوْا عِنْـــدَ مَلِيـــكٍ بِمَسَاوِيهِـــم خَبِـــــير
حَكَمٌ يَعْـــدِلُ لاَ يَظْلِمُ مِقْـــــدَارَ النَّقِــــــير

قال محمد بن الفضل البلخي

الدنيا بطنك ، فبقدر زهدك في بطنك زهدك في الدنيا[1].

وهذا أبو الوفاء بن عقيل رحمه الله كان يقول : إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري ، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة أو مناظرة ، وبصري عن مطالعة ، أعملت فكري في حال راحتي وأنا منطرح ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره ، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في الثمانين ، أشدَّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة .

وقارب الثمانين وما رأى نقصاً في الخاطر والفكر والحفظ وحدة النظر وقوة البصر ، وذكر في فنونه عن نفسه : أنا أقصِّر بغاية جهدي أوقات أكلي ، حتى أختار سف الكعك وتحسيه بالماء ، على الخبز لأجل ما بينهما من تفاوت

---

(١) البيهقي (شعب الإيمان : ٥ | ٥٧١٢) .

المضغ ، توفرا على مطالعة أو تسطير فائدة لم أدركها[١].

فيا عبد الله كيف حال بيوت المسلمين الآن مع الطعام ! . منهم من يُحَضِّر له من الليل ، ومنهم مِنْ الصباح ، وكم من أصناف وألوان ؟

كم أضاع من أوقات وأُنفق من أموال ؟ فحرمت البيوت من الطاعات ! فإن كان القائم على الطعام الزوجة ، ضيعت النهار في عمل الطعام وآخره في غسل أواني الطهي وغيرها من بقايا الطعام ، وربما أخرت الصلاة أو جمعت بين الصلوات كأنها في جهاد ! فإذا رق دينها بانشغالها بالطعام وغيره ؛ من تنظيف الأواني والأثاث وترتيب الشقة والفراش ! فكيف تجمع بين هذه الهموم وهم الطاعة والعبادات .

أتدري أين يصير هذا الطعام يا عبد الله !

فما صار إليه الطعام ضُرِب مثلا للدنيا ، فالانشغال بها سفه والانكباب عليها لعب .

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((**إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ جُعِلَ مَثَلاً لِلدُّنْيَا وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ فَانْظُرُوا إِلَى مَا يَصِيرُ**))[٢].

كم من أمراض بسبب كثرة الطعام !

ولما زاد الشره للطعام عند الناس ، برعوا في تكثيره ، وتنميته عن طريق الهرمونات والسموم التي تفتك بجميع الكائنات ، فأصبح الطعام إكثاراً بلا طعم أو فائدة .

فقف يا عبد الله مع الطعام موقف العبد الذي لا يشدِّد على نفسه ، كحال الصوفية وغيرهم الذين يحرمون أنفسهم من الطعام ، فيصابون بحالة من الجنون

---

(١) برهان الدين ابن مفلح (المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد : ٢/٢٤٧) .
(٢) أحمد (زوائد عبد الله : ٢٠٧٣٣) .

أو تلف في العقل ، ولا كحال الكفار الذين لا هم لهم إلا التمتع بالطعام وغيره ، مع قطع الهمّ والرجاء في الآخرة كما قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ** ﴾ [محمد : ١٢]

فنسأل الله طُعْمَة حلالا ، ورزقاً يبلغنا مرضاته ، اللهم آمين .

خامساً : النوم

كيف ينام من أدرك أن أجله محتوم ، وأن الموت قد يأتيه بغتة ، وأن رصيده ورأس ماله الساعات والدقائق والثواني !

فلما جد المجدون ، وشمر المشمرون ، وهجروا وثير الفراش ، وتجافوا عن المضاجع ، وقطعوا الليل والنهار سيراً إلى الآخرة ، وصلوا إلى جنة عرضها السماوات والأرض .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « **مَنْ خَافَ أَدْلَجَ**[١] **وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ ، أَلاَ إِنَّ سلْعَةَ اللَّه غَالِيَةٌ ، أَلاَ إِنَّ سلْعَةَ اللَّه الْجَنَّةُ** »[٢].

هل تعلم أيها الحبيب كيف حال أهل الجنة في الدنيا .

قال تعالى : ﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ** ﴾ [السجدة : ١٦]

فكان لهم في الآخرة كما قال تعالى : ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّة أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [السجدة : ١٧]

كان حالهم في الدنيا كما قال تعالى : ﴿ **كَانُوا قَليلاً منْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الذاريات : ١٧ - ١٨]

---

(١) الدلجة : السير أول الليل .

(٢) **صحيح** : الترمذي (٢٤٥٠) الحاكم (المستدرك : ٣٤٣/٤) عبد بن حميد (المنتخب ١٤٦٠) .

والذي ينظر إلى الجيل الأول يرى أنهم جعلوا النوم عبادة ، فلا ينامون إلا بالقدر الذي يبلغهم إلى الاستمرار في طاعة الله ﷻ ، كما نرى قول معاذ ﷺ : فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي[1].

ولذلك نرى أن الجيل الأول تربى على قلة النوم ، والعمل المتواصل مع الله ﷻ .

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۞ قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۞ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۞ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْــوَمُ قِيلاً ۞ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً** ﴾ [المزمل : ١ - ٧]

فجاء الأمر من الله ﷻ بهجر النوم إلا ما غلب ، ليعان به على الطاعة ، فأمرهم سبحانه بقيام الليل ، مع السعي في النهار على ضرورياتهم .

بهذه الآيات وبغيرها تربى الجيل الأول ، حتى قاموا عاماً تفطرت فيه الأقدام ، وكان منهم من يقوم الليل كله حذرا من التفريط ، فكانوا خير رجال فُتحت بهم الدنيا .

ثم خفف الله عنهم الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنْ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**

---

(١) جزء من حديث أبي موسى مع معاذ سيأتي إنشاء الله .

وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

[المزمل : ٢٠]

وهذا النبي ﷺ كما قال ابن رواحة :[1]

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَــهُ ... إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنْ الْفَجْرِ سَاطِعُ

أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا ... بِهِ مُوقِنَــاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِــعُ

يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ ... إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ

وبينما هو قائم يستعذب المناجاة لله سبحانه وتعالى ، في وقت لا يدركه إلا من وفقه الله ﷻ ، كان يناجي بهذه الكلمات .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ ، قَالَ : ((**اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَوْ لاَ إِلَهَ غَيْرُكَ**))[2].

---

(١) البخاري : (١١٥٥) .

(٢) البخاري : (١١٢٠) ، مسلم : (٧٦٩) .

قيام النبي ﷺ ونومه

وانظر إلى حالة النبي ﷺ من هجر للنوم ، وإقبال على الله ﷻ .

عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ : قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ ، فَقِيلَ لَهُ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، قَالَ : أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا[١].

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَيُّ الْعَمَلِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ؟ قَالَتْ : الدَّائِمُ ، قُلْتُ : مَتَى كَانَ يَقُومُ ؟ قَالَتْ : كَانَ يَقُومُ إِذَا سَمِعَ الصَّارِخَ[٢].

عَنْ الأَسْوَدِ قَالَ : سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَيْفَ كَانَتْ صَلاَةُ النَّبِيِّ ﷺ بِاللَّيْلِ ؟ قَالَتْ : كَانَ يَنَامُ أَوَّلَهُ ، وَيَقُومُ آخِرَهُ ، فَيُصَلِّي . ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى فِرَاشِهِ ، فَإِذَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ وَثَبَ ، فَإِنْ كَانَ بِهِ حَاجَةٌ اغْتَسَلَ ، وَإِلاَّ تَوَضَّأَ وَخَرَجَ[٣].

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ ، فَقُلْتُ : يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ ، ثُمَّ مَضَى . فَقُلْتُ : يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ ، فَمَضَى . فَقُلْتُ : يَرْكَعُ بِهَا ، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا ، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا ، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً ؛ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ، ثُمَّ رَكَعَ ، فَجَعَلَ يَقُولُ : سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ ، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ ، ثُمَّ قَالَ : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، ثُمَّ قَامَ طَوِيلاً ، قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ ، ثُمَّ سَجَدَ ، فَقَالَ : سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى ، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ[٤].

---

(١) البخاري : (٤٨٣٦) .

(٢) البخاري : (١١٣٢) ، مسلم : (٧٦١) .

(٣) البخاري : (١١٤٦) ، مسلم : (٧٣٩) .

(٤) مسلم : (٧٧٢) .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، مَا تَرَى فِي صَلاَةِ اللَّيْلِ ؟ قَالَ : ((**مَثْنَى مَثْنَى ، فَإِذَا خَشِيَ الصُّبْحَ صَلَّى وَاحِدَةً ، فَأَوْتَرَتْ لَهُ مَا صَلَّى**)) ، وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ : ((**اجْعَلُوا آخِرَ صَلاَتِكُمْ وِتْرًا ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِه**))(١).

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا أَخْبَرَتْهُ ، أَنَّهَا لَمْ تَرَ رَسُولَ اللَّه ﷺ يُصَلِّي صَلاَةَ اللَّيْلِ قَاعِدًا قَطُّ حَتَّى أَسَنَّ . فَكَانَ يَقْرَأُ قَاعِدًا ؛ حَتَّى إِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ فَقَرَأَ نَحْوًا مِنْ ثَلاَثِينَ آيَةً أَوْ أَرْبَعِينَ آيَةً ثُمَّ رَكَعَ(٢).

دعوته ﷺ إلى الاعتدال في القيام والنوم

وكان النبي ﷺ يحث أصحابه على الاعتدال ، مع المواظبة على قيام الليل ، فنراه إن رأى تشدداً حث على الاعتدال ، وإن رأى تفريطاً حث على الانضباط .

الرهط الذين تقالُّوا عبادة النبي ﷺ

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك ﷺ قَالَ : جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا ، فَقَالُوا : وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه وَمَا تَأَخَّرَ ، قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا ، وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ ، وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ : ((**أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ، أَمَا وَاللَّه إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّه ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ . فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**))(٣).

---

(١) البخاري : (٤٧٢) ، مسلم : (٧٤٩) .
(٢) البخاري : (١١١٨) .
(٣) البخاري : (٥٠٦٣) ، مسلم : (١٤٠١) .

وهذه زينب رضي الله عنها كانت تشد ضفائرها من الليل بحبل في سارية حتى لا تنام .

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ ، فَقَالَ : ((**مَا هَذَا الْحَبْلُ**)) قَالُوا : هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ ؛ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**لاَ ، حُلُّوهُ . لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ**))(١).

وهذه امرأة تذكر من صلاتها وكثرة عبادتها

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ الْحَوْلاَءَ بِنْتَ تُوَيْتِ بْنِ حَبِيبِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى مَرَّتْ بِهَا وَعِنْدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ فَقُلْتُ : هَذِهِ الْحَوْلاَءُ بِنْتُ تُوَيْتٍ ، وَزَعَمُوا أَنَّهَا لاَ تَنَامُ اللَّيْلَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((**لاَ تَنَامُ اللَّيْلَ ؟ خُذُوا مِنْ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ ، فَوَاللَّهِ لاَ يَسْأَمُ اللَّهُ حَتَّى تَسْأَمُوا**))(٢).

وبين لعبد الله بن عمرو خير القيام و خير الصيام .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ : ((**أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَم ، وَأَحَبُّ الصِّيَام إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ ، وَيَصُومُ يَوْمًا ، وَيُفْطِرُ يَوْمًا**))(٣).

فلا تشدد ولا تجافي ، وخير الدين أوسطه ، ولا عبادة ولا طاعة أفضل مما قام بها النبي ﷺ وأصحابه ﷺ . أخذوا حظاً من النوم أعانهم على شرف

---

(١) **البخاري** : (١١٥٠) ، **مسلم** : (٧٨٤) .

(٢) **مسلم** : (٧٨٥) .

(٣) **البخاري** : (١١٣١) ، **مسلم** : (١١٥٩) .

القيام بجد ونشاط . وكفى شرفاً بالمتيقظ للنزول الإلهي في كل ليلة ، لينال من الخيرات والبركات من حُرِمَهُ أكثر الناس .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**))(١).

ولذلك نرى أن النبي ﷺ ضبط الأمر مع أصحابه .

عبد الله بن عمرو

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ :

قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ : ((**أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ**)) قُلْتُ : إِنِّي أَفْعَلُ ذَلِكَ ، قَالَ : ((**فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمَتْ عَيْنُكَ ، وَنَفِهَتْ نَفْسُكَ ، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ حَقًّا ، وَلأَهْلِكَ حَقًّا ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ ، وَقُمْ وَنَمْ**))(٢).

وكذلك فعل سلمان مع أبي الدرداء

عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ قَالَ : آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ ؛ فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً ، فَقَالَ لَهَا : مَا شَأْنُكِ ؟ قَالَتْ : أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا . فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا ، فَقَالَ : كُلْ ، قَالَ ، فَإِنِّي صَائِمٌ ، قَالَ : مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ ، قَالَ : فَأَكَلَ ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ ، قَالَ : نَمْ ، فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ ، فَقَالَ : نَمْ ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ ، قَالَ سَلْمَانُ : قُمْ الآنَ . فَصَلَّيَا ، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ : إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلأَهْلِكَ

---

(١) البخاري : (١١٤٥) ، مسلم : (٧٥٨) .

(٢) البخاري : (١١٥٣) ، مسلم : (١١٥٩)

عَلَيْكَ حَقًّا ، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**صَدَقَ سَلْمَانُ**))[1].

وكذلك معاذ مع أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما

بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ أَبَا مُوسَى وَمُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ الحديث .. وفيه (فَقَالَ مُعَاذٌ لأَبِي مُوسَى كَيْفَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَالَ قَائِمًا وَقَاعِدًا وَعَلَى رَاحِلَتِي وَأَتَفَوَّقُهُ تَفَوُّقًا[2] قَالَ : أَمَّا أَنَا فَأَنَامُ وَأَقُومُ . فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي)[3].

وكان النبي ﷺ يحذر أصحابه من التهاون في قيام الليل

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((**يَا عَبْدَ اللَّهِ لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ**))[4]

وحث كلاً من الزوجين على التعاون على بلوغ هذه الفضيلة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((**رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً قَامَ مِنْ اللَّيْلِ فَصَلَّى ثُمَّ أَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ ؛ فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ . وَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنْ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ ثُمَّ أَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَصَلَّى ؛ فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ**))[5].

النوم عن قيام الليل

من أعظم ما يبتلى به العبد أن يحرم هذه الفضيلة ، إذ هي شعار الصالحين ، ودرب الأنبياء والمصلحين ، من حرمها فقد حرم أعظم نعمة ، وفقد أعظم

(١) البخاري : (١٩٦٨) .
(٢) تفَوُّق : قراءته حيناً بعد حين
(٣) البخاري : (٤٣٤٥) .
(٤) البخاري : (١١٥٢) ، مسلم : (١١٥٩) .
(٥) صحيح : النسائي (١٥٩٢) أبو داود (١٣٠٨) ابن ماجة (١٣٣٦) أحمد (٢/٢٥٠) ابن حبان (٦/٢٥٦٧) البيهقي (السنن الكبرى : ٢/٥٠١) .

عطية ، وخسر أسعد اللحظات ، التي يتجلى فيها رب البريات ، ينادي على عباده بالتوبة والغفران ، فيجيب سؤلهم ، ويمحو ذنبهم ، ويخلع عليهم من فضله ومغفرته ما تقر به نفوسهم ، فلا يرون لذة ولا نعيما ألذ من هذه اللحظات . بخلاف غيرهم ممن حرموا هذه الفضيلة ، فلا حرمان أشد مما هم فيه ولا غبن ولا خسارة أعظم مما نالهم بترك هذه اللحظات .

عَنْ عَبْد اللَّه ﷺ قَالَ : ذُكرَ عنْدَ النَّبيِّ ﷺ رَجُلٌ ، فَقيلَ مَا زَالَ نَائمًا حَتَّى أَصْبَحَ مَا قَامَ إِلَى الصَّلاَة ، فَقَالَ : ((**بَالَ الشَّيْطَانُ في أُذُنه**))[1].

وكان يشق على ابن عمر في أول شبابه قيام الليل ، فكانت رؤياه سببا في حث النبي ﷺ له على قيام الليل .

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ الرَّجُلُ في حَيَاة النَّبيِّ ﷺ إِذَا رَأَى رُؤْيَا قَصَّهَا عَلَى النَّبيِّ ﷺ ، فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَرَى رُؤْيَا أَقُصُّهَا عَلَى النَّبيِّ ﷺ ، وَكُنْتُ غُلاَمًا شَابًّا أَعْزَبَ ، وَكُنْتُ أَنَامُ في الْمَسْجد عَلَى عَهْد النَّبيِّ ﷺ ، فَرَأَيْتُ في الْمَنَام كَأَنَّ مَلَكَيْن أَخَذَاني فَذَهَبَا بي إِلَى النَّار فَإِذَا هيَ مَطْويَّةٌ كَطَيِّ الْبئْر ، وَإِذَا لَهَا قَرْنَان كَقَرْنَيْ الْبئْر . وَإِذَا فيهَا نَاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ فَجَعَلْتُ أَقُولُ : أَعُوذُ باللَّه منْ النَّار ، أَعُوذُ باللَّه منْ النَّار ، فَلَقيَهُمَا مَلَكٌ آخَرُ ، فَقَالَ لي : لَنْ تُرَاعَ . فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ ، فَقَصَّتْهَا حَفْصَةُ عَلَى النَّبيِّ ﷺ ، فَقَالَ : ((**نعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّه ؛ لَوْ كَانَ يُصَلِّي باللَّيْل**)) . قَالَ سَالمٌ : فَكَانَ عَبْدُ اللَّه لاَ يَنَامُ منْ اللَّيْل إلاَّ قَليلاً [2].

---

(١) البخاري : (١١٤٤) .

(٢) البخاري : (٣٧٣٩) ، مسلم : (٢٤٧٩) .

قيام السلف ونومهم

صور من حال السلف مع النوم[1].

فهذا أبو موسى الأشعري

اجتهد قبل موته اجتهادا شديدا ، فقيل له : لو أمسكت ، ورفقت بنفسك بعض الرفق ، قال : إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها ، أخرجت جميع ما عندها ، والذي بقي من أجلي أقل من ذلك ، فلم يزل على ذلك حتى مات .

عبد الله بن عمر

كان له مِهْراس فيه ماء ، فيصلي ما قُدِّر له ، ثم يصير إلى فراشه فيغفى إغفاء الطائر ، ثم يقوم فيتوضأ ، ثم يصلي ثم يرجع إلى فراشه ، فيغفى إغفاء الطائر ، ثم يثب فيتوضأ ثم يصلي ، فيفعل ذلك في الليلة أربع مرات أو خمساً .

وهذا عمر بن عبد العزيز

يقول خادمه منصور أبو أمية : رأيت عمر بن عبد العزيز ﷺ وله سَفَط[2] في كوة مفتاحه في إزاره ، فكان يتغفلني ، فإذا نظر إليَّ قد نمت فتح السَّفَط فأخرج منه جبة شَعْر ورداء شعر ، فصلى فيهما الليل كله فإذا نودي بالصبح نزعهما .

---

(١) وهذه الأحاديث والآثار اختصرتها من كتابي (العبادة واجتهاد السلف فيها)فمن أراد أن يقف على هذه الآثار وغيرها مع ذكر المصادر والمراجع فليرجع إليها.

(٢) السَّفَطُ : ما يخبأ فيه الأشياء من طيب وغيره .

وهذا الحسن البصري

عن الحسن قال : حلماء إن جهل عليهم لم يسفهوا ، هذا نهارهم ، فكيف ليلهم ! خير ليل ، أجروا دموعهم على خدودهم ، وصفوا أقدامهم ، يطلبون من الله فكاك رقابهم من النار .

وهذا صلة بن أشيم

يقول حماد بن زيد العبدي إن أباه أخبره قال : خرجنا في غزوة إلى كابل وفي الجيش صلة بن أشيم قال : فترك الناس في العتمة ثم اضطجع ، فالتمس غفلة الناس ، حتى إذا قلت هدأت العيون ، وثب فدخل غيضة[1] قريبا منه ، ودخلت في إثره ، فتوضأ ثم قام يصلي فافتتح ، قال : وجاء أسد حتى دنا منه فصعدت في شجرة ، قال : فتراه التفت إليه أو فزع ! حتى سجد .

فقلت الآن يفترسه فلا شيء ! فجلس ثم سلّم ، فقال : أيها السبع اطلب الرزق من مكان آخر .

فولى وإن له زئيرًا أقول تصدع الجبال منه ، فما زال كذلك يصلي ، حتى إذا كان عند الصبح جلس ، فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها إلا ما شاء الله ، ثم قال : اللهم إني أسألك أن تجرني من النار ، أو مثلي يجترئ أن يسألك الجنة ، ثم رجع فأصبح كأنه بات على الحشايا ، وأصبح وبي من الفترة شيء الله به عليم .

وهذا ثابت البناني

قال حماد بن سلمة : لما سُوِّي عليه التراب ، وفُرغ من دفنه ، رُئي كأنه يصلي في قبره ! فقيل لابنته : ما كان عمل أبيك ثابت ؟ فقالت : كان

---

(١) غيضة : موضع يكثر فيه الشجر .

يقوم الليل خمسين سنة ، فإذا كان السحر قال في دعائه : اللهم إن كنت أعطيت أحدا من خلقك الصلاة في قبره فأعطينيها .

وهذا أيوب السختياني

كان يقوم الليل كله ، فيخفي ذلك ، فإذا كان ثم الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة .

وهذا محمد بن المنكدر

بينا هو ذات ليلة قائم يصلي ، إذ استبكى وكثر بكاؤه حتى فزع أهله ، وسألوه ما الذي أبكاه ، فاستعجم عليهم ، وتمادى في البكاء ، فأرسلوا إلى أبي حازم فأخبروه بأمره ، فجاء أبو حازم إليه فإذا هو يبكي ، قال : يا أخي ما الذي أبكاك قد رُعت أهلك ، أفمن علة ؟ أم ما بك ! فقال : إنه مرت بي آية في كتاب الله ﷻ ، قال : وما هي ؟ قال : قول الله تعالى : ﴿ **وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ [الزمر : ٤٧] فبكى أبو حازم أيضا معه ، واشتد بكاؤهما ، فقال بعض أهله لأبي حازم جئنا بك لتفرج عنه فزدته ، فأخبرهم ما الذي أبكاهما .

وكان ابن المنكدر يقوم من الليل فيتوضأ ؛ ثم يدعو فيحمد الله ﷻ ويثني عليه ويشكره ، ثم يرفع صوته بالذكر ، فقيل له لم ترفع صوتك ، قال : إن لي جارا يشتكي يرفع صوته بالوجع ، وأنا أرفع صوتي بالنعمة .

وهذه فاطمة بنت محمد بن المنكدر

تكون نهارها صائمة ، فإذا جنها الليل تنادي بصوت حزين : هدأ الليل واختلط الظلام وأوى كل حبيب إلى حبيبه ، وخلوتي بك أيها المطلوب أن تعتقني من النار .

وهذا عامر بن عبد الله

يقال له ابن عبد قيس يقول : ما رأيت مثل الجنة ، نام طالبها ، وما رأيت مثل النار نام هاربها ، وكان إذا جاء النهار قال : أذهب حر النار النوم ، فما ينام حتى يمسي ، وإذا جاء الليل قال : من خاف أدلج ، يحمد القوم السرى ، وكان كثير العبادة ، كثير الصلاة ، وكان إذا صلى العصر جلس وقد انتفخت ساقاه من طول القيام ، فيقول : يا نفس بهذا أمرت ، ولهذا خلقت ، يوشك أن يذهب العناء .

وكان يقول لنفسه : قومي يا مأوى كل سوء ، فوعزة ربك لأزحفن بك زحف البعير ، ولئن استطعت ألاّ يمس الأرض من زهمك لأفعلن ، ثم يتلوى كما تتلوى الحية على المقلى ، ثم يقوم فينادى : اللهم إن النار قد منعتني من النوم فاغفر لي .

وهذه حفصة بنت سيرين

كانت تسرج سراجها من الليل ، ثم تقوم في مُصَلاَّها ، وربما طفئ السِّراج ، فيُضَاء لها البيت حتى تصبح .

وكان ولدها الهذيل بن حفصة يجمع الحطب في الصيف ويقشره ، ويأخذ القصب فيفلقه ، قالت حفصة : فكنت أجد قَرَّةً[1] قالت : فيجيء بالكانون حتى يضعه خلفي ، وأنا أصلي ؛ وعنده من يكفيه لو أراد ذلك . قالت حفصة : فيوقد لي ذلك الحطب المقشر والقصب المفلق وقوداً يدفئني ولا يؤذيني ريحه ، قالت : فربما أردت أن أنصرف إليه فأقول : يا بني ارجع إلى أهلك ، ثم أذكر ما يريد فأخلي عنه .

(١) قَرَّةً : أي برد .

وهذا طاووس بن كيسان

يُذْكَر أن الأسد حبس الناس ليلة في طريق الحج ، فدق الناس بعضهم بعضاً ، فلما كان في السحر ذهب عنهم ، فنَزل الناس يميناً وشمالاً وألقوا أنفسهم فناموا ، وقام طاووس يصلي فقال رجل لطاووس : ألا تنام فإنك نصبت الليلة ، قال طاووس : وهل ينام السَّحَر .

وأتى رجلاً في السَّحَرِ فقالوا : هو نائم ، قال : ما كنت أرى أن أحداً ينام في السَّحَر .

وهذا سليمان التيمي

قال عنه السَّري بن يحيى : كان سليمان التيمي في طريق مكة يتوضأ لصلاة العشاء ، ثم يصلي الليل كله في محمله حتى يصبح ، ثم يصلي الصبح بوضوئه ذلك .

وهذا منصور بن المعتمر

لما مات قالت بِنْتُ جارِه : يا أبت أين الخشبة التي كانت في سطح منصور قائمة ؟ قال : يا بنية ذاك منصور كان يقوم الليل .

وهذا حسان بن أبي سنان

قالت امرأته : كان يجيئني فيدخل معي في فراشي ، ثم يخادعني كما تخادع المرأة صبيها ، فإذا علم أني قد نمت سلّ نفسه فخرج ثم يقوم فيصلي ، قالت : فقلت له : يا أبا عبد الله كم تعذب نفسك ، ارفق بنفسك ، قال اسكتي ، ويحك يوشك أن أرقد رقدة لا أقوم منها زمانا .

وهذا عبد الرحمن بن مهدي

يقول علي بن المديني : دخلت على امرأته بعد موته ، فرأيت سواداً في القبلة ، فقلت ما هـــذا : فقالت هذا موضع استراحة عبد الرحمـــن ، كان

يصلي بالليل ، فإذا غلبه النوم ، وضع جبهته على هذا الموضع .

وهذا عطاء الخراساني

قال عبد الرحمن بن يزيد بن جابر : كنا نغازي عطاء الخراساني ، وكان يحيى الليل صلاة ، فإذا مضى من الليل نصفه أو ثلثه ، أقبل علينا ونحن في فساطيطنا فينادي : يا يزيد ، يا عبد الرحمن بن يزيد ، ويا هشام بن الغاز ، قوموا فتوضئوا ، وصلوا صلاة هذا الليل ، وصيام هذا النهار ، أهون من مُقَطِّعات الحديد ، ومن شُرْبِ الصَّديد ، الوحا الوحا ، النجا النجا ، ثم يقبل على صلاته .

وهذا سفيان الثوري

قال يوسف بن أسباط : قال لي سفيان بعد العشاء ناولني المطهرة أتوضأ ، فناولته فأخذها بيمينه ، ووضع يساره على خده ، فبقي مفكراً ونمت ، ثم قمت وقت الفجر ، فإذا المطهرة في يده كما هي ! فقلت : هذا الفجر قد طلع ، فقال : لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر في الآخرة حتى الساعة .

وهذا الأوزاعي

عالم الشام قال ضمرة بن ربيعة : حججنا مع الأوزاعي سنة خمسين ومائه ، فما رأيته مضطجعاً على المحمل في ليل ولا نهار قط ، وكان يصلي ، فإذا غلبه النوم استند إلى القتب .

وهذا عبد الله بن المبارك

قال محمد بن الوزير وصيه : كنت مع عبد الله في المحمل فانتهينا إلى موضع بالليل ، وكان ثَمَّ خوف ، قال : فنَزل ابن المبارك وركب دابته حتى جاوزنا الموضع فانتهينا إلى نهر فنَزل عن دابته ، وأخذت أنا مقودته واضطجعت ، فجعل يصلي حتى طلع الفجر وأنا انظر إليه ، فلما طلع الفجر

ناداني قال : قم فتوضأ ، قال : قلت أنا على وضوءٍ ، فركبه الحزن حيث علمت أنا بقيامه ، فلم يكلمني حتى انتصف النهار ، وبلغت المنْزل معه .

وهذا الفضيل بن عياض

يقول عنه إسحاق بن إبراهيم : ما رأيت أحدا أخوف على نفسه ولا أرجى للناس من الفضيل ، كانت قراءته حزينة ، شهية بطيئة مترسلة ، كأنه يخاطب إنسانا ، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة ، تردد فيها وسأل ، وكانت صلاته بالليل أكثر ذلك قاعدا ، تُلقى له حصير في مسجده فيصلي من أول الليل ساعة حتى تغلبه عينه فيلقي نفسه على الحصير فينام قليلا ثم يقوم ، فإذا غلبه النوم نام ، ثم يقول : هكذا حتى يصبح ، وكان دأبه إذا نعس أن ينام ، ويقال أشد العبادة ما يكون هكذا .

وهذا علي والحسن ابنا صالح بن حيي وأمهما

قد جزءوا الليل ثلاثة أجزاء ، فكان علي يقوم الثلث ثم ينام ، ويقوم الحسن الثلث ثم ينام ، وتقوم أمهم الثلث ، ثم ماتت أمهما ، فجزءا الليل بينهما ، فكانا يقومان به ، ثم مات علي ، فقام الحسن به كله .

وهذه خادمة كانت لآل الحسن بن صالح بن حيي

تخدمهم فاحتاجوا إلى بيعها فباعوها ، فلما كان في أول الليل ذهبت ، وألحت على مولاها تقيمه ، وتقول ذهب الليل ! مرة ، بعد مرة ، حتى أضجرته ، فصاح بها ، فلما أصبحت ؛ ذهبت إلى الحسن فقالت : يا سبحان الله! ما كان يجب عليكم فيما خدمتكم أن تبيعوني من مسلم! فقال الحسن : سبحان الله وما له ! قالت : انتظرت ليقوم ليتهجد فلم يفعل ، فألححت عليه فزبرني وشتمني ، فصاح الحسن : يا علي أو ما تعجب من هذه ! اذهب فتسلف ثمنها من بعض إخواننا وأعتقها .

وهذا صاحب أبي عبد الله المقري

يقول أبو عبد الله المقري كان معنا شيخ في الرباط يوقظ الأصحاب إذا مضى ثلث الليل ، ويرغبهم في القيام للتهجد ، فإذا رأى منهم ناشطا حمد الله ﷻ ، وتلى آيات من القرآن كقوله ﷻ : ﴿ **وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ** ﴾ [الإسراء : ٧٩] ثم يرفع صوته ويقول :

سَلْ اللَّيْلَ أَهْلَ اللَّيْـــلِ بالسَّحَرِ وَالنَّاعمينَ بلا لَهْـــوٍ وَلاَ سَـــمَرِ
والْقَابضينَ عَلَى الأَكْبَادِ أَيْديَهُمِ شَدُّوا الرَّحيلَ وَهَيَّئوا لَهُ السَّفَـــرَ

فإن رأى منهم تثاقلاً أو تكاسلاً يقول :

من نام الليل الكثير ، لقي الله يوم القيامة فقيرا .

ثم يرفع صوته ويقول :

تَنَبَّـــه منْ مَنَـــامكَ يَا جَهُـــولُ فَنَوْمُك تَحْتَ رِمْشكَ قَدْ يَطُولُ
تَأَهَّبْ لَلْمَنيـــة حَـــينَ تَغْـــدُو عَسَى تُمْسِي وَقَدْ نَزَلَ الرَسُـــولُ

وهذه زوجة أبي عمران الجوني

يقول عون بن أبي عمران الجوني : كانت أمي تقوم الليل فتصلي ، حتى تعصب رجليها وساقيها بالخرق . فيقول لها أبو عمران : دون هذا يا هذه . فتقول له : هذا ثمّ طول القيام في الموقف قليل ، فيسكت عنها .

وهذا الشافعي رحمه الله

يقول الربيع بن سليمان : كان قد جزأ الليل ثلاثة أثلاث ، الثلث الأول ؛ يكتب ، والثلث الثاني ؛ يصلي ، والثلث الثالث ؛ ينام .

وهذا أحمد بن حنبل

يتعجب من مسافر لا يقوم الليل . قال عبد الصمد بن سليمان بن أبي مطر : بِتُّ عند أحمد بن حنبل رحمه الله ، فوضع لي صاغرة ماء ، قال : فلما

أصبحت ، وجدني لم أستعمله فقال : صاحب حديث لا يكون له ورد بالليل . قال قلت : مسافر ، قال : وإن كنت مسافراً حج مسروق فما نام إلا ساجداً .

وهذا عبد الغني المقدسي

كان لا يُضَيِّعُ شيئاً من زمانه ، كان يصلى الفجر ، ويُلَقِّن القرآن ، وربما لقن الحديث ، ثم يقوم فيتوضأ ، ويصلى ثلاث مائة ركعة بالفاتحة والمعوذتين إلى قبيل الظهر ، فينام نومة فيصلى الظهر ، ويشتغل بالتسميع ، أو النسخ إلى المغرب ، فيفطر إن كان صائما ، ويصلى إلى العشاء ، ثم ينام إلى نصف الليل أو بعده ، ثم يتوضأ ويصلى إلى قريب الفجر ، وربما توضأ سبع مرات أو أكثر ، ويقول تطيب لي الصلاة ما دامت أعضائي رطبة ، ثم ينام نومة يسيرة قبل الفجر .

ماذا بعد !

فهذه قطوف من سِيَرٍ يفوح شذاها على مر الدهور، فما موقف قلبك بعد ما طار ! وهو يرقب أنفاس أقوامٍ ما خرجت إلا بذكر الله ، ولا دخلت إلا بذكر الله .

قوم بذلوا الطّاعات وأفنوا أعمارهم يتسابقون في رضى الله .

فأين أنا وأنت من هذا الركب العظيم ..!!

يا من يذنب ولا يتوب ! كم قد كُتبت عليك ذنوب ، خل الأَمَلَ الكذوب ، فربَّ شروق بلا غروب ! واأسفى أين القلوب ! تفرقت بالهوى في شعوب ، ندعوك إلى صلاحك ولا تؤوب ، واعجبا الناس ضروب .

متى تنتبه لخلاصك أيها الناعس ! متى تطلب الأُخرى ، يا من على الدنيا ينافس ! متى تذكر وحْدَتَك إذا انفردت عن مؤانس ! يا من قلبه قد قسا ، وجفنه ناعس ، يا من تحدثه الأماني دع هذه الوساوس .

أين الجبابرة الأكاسرة الشجعان الفوارس ؟ أين الأُسْدُ الضواري والظباء الكوانس ؟

أين من اعتاد سعة القصور ؟ حُبِس من القبور في أضيقِ المحابس ، أين الرافل في أثوابه ! عُرِّيَّ في ترابه عن الملابس !

أين الغافل في أمله عن أجله ؟ سلبه كَفُّ الْمُخَالِس ، أين حارس المال ! أخذ المحروس وقتل الحارس .

فيا عبد الله كأنك بالموت وقد خطف ، ثم عاد إلى الباقي وعطف ، تنبه لنفسك يا ابن النطف ، فقد حاذى الرامي الهدف ، إلى كم تسير في سرف ، ليت هذا العزم وقف ، تؤخر الصلاة ثم تسيئها كالبرق إذا خطف ، أتجمع سوء كيلة مع حشف ! الجسد أتى والقلب انصرف .

يا من باع الدُّرَ واشترى الخزف ، أبسط بساط الحزن على رماد الأسف ، عليك حافظ وضابط ليس بناسٍ ولا غالط ، يكتب الألفاظ السواقط ، وأنت في ليل الظلام خابط ، يا منْ شاب إلى كم تغالط . ابك ما مضى ويكفي الفارط ، ما للعيون قد أخلفت أنواؤها ، وكثر نظرها إلى الحرام فقل بكاؤها ! ما للقلوب المريضة قد عز شفاؤها ، سأكتب ضمان الآمال وأين وفاؤها ! آه لأمراضِ نفوسٍ قد يئس طبيبها ، ولأصواتِ مواعظِ قد خرس مجيبها ، هَبّت والله دبور الذنوب ، فتركت الأجسامَ بلا قلوب .

أين الفهم والتأمل ، إن لم يكن جميل فليكن تجمل ! إخواني قد دنا الترحل ، لا بد وشيكا من التحول ، رقيبكم يا غافلين لا يغفل ، أتذكرون

الذنوب بلا تململ ! يا من يَعِدُ بالتوبة ! كم تَمْطُل ؟ يا ملازما للهوى كم تَعْدِل ؟ المعاصي سمٌّ ، والقليل منه يقتل .

يا هذا الدنيا وراءك ، والأخرى أمامك ، والطلب لما وراءك هزيمة ، إنما يعجب بالدنيا من لا فهم له ، كما أن أضغاث الأحلام تسر النائم .

يا غافلا عن مصيره ، يا واقفا في تقصيره ، سبقك أهل العزائم وأنت في اليقظة نائم ، قف على الباب وقوف نادم ، ونَكِّس رأس الذل وقل : أنا ظالم . وناد في الأسحار : مذنبٌ وواجم ، وتشبه بالقوم وإن لم تكن منهم وزاحم ، وابعث بريح الزفرات سحابَ دمعٍ ساجم ، قم في الدجا نادباً ، وقف على الباب تائبا ، واستدرك من العمر ذاهبا ، ودع اللّهو والهوى جانبا ، وطلق الدنيا إن كنت للأخرى طالبا . ولكن بلا قلب إلى أين أنت ذاهب ؟ أطلب قلبك وانشده في الخلوات والمجامع ، فإن وجدته فشمر وسابق ، والحق بالركب وأدرك ما فاتك .

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يفك أسر قلوبنا ، وأن يجمعها على طاعته اللهم آمين .

كتبه الفقير إلى عفو ربه

صلاح الدين علي عبد الموجود

مطوبس / في ١١ من ربيع الأول ١٤٢٤هـ

الفهرس